أجاثا كريستي

غادة طيبة



المكتبة الثقافية
بيروت

APPROVED

غادة طيبة

- ١ -

وقفت رنزنب الشابة الجميلة تنظر إلى النيـل ، وهي تسمع عن بعـد صوت أخويها ، يحموز وسوبك يتجادلان في شأن بعض الجسور وحاجتها إلى التقوية .

وكان صوت سوبك ، كعادته دائماً ، عالياً جريئاً ، وقد أخذ يؤكد صحة رأيه وكأنه حقيقة ثابتة . أما يحموز فكان صوتـه خافتاً ينبىء عن الضجر والشك والقلق والخوف ، ولا عجب فهو أكبر إخوته ، وكان عليه لهذا كلما سافر أبوه لتفقد أملاكه في شمال الوادي ، أن يتولى إدارة المزرعة بالنيابة عنه .

وقد تعودت رنزنب ، منذ طفولتها ، مثل ذلك الجـدل من أخويها على تناقضهما في الطبـاع ، لكن صوتهما في تلك السـاعة ، بعث في نفسهـا الطمأنينة ، إذ شعرت بأنها عادت أخيراً إلى بيت الأسرة حيث طالما سعدت بالأمان والحنان !

وفيما هي تردد بصرها في النيل الشاحب اللامع ، عاودها شعور الثورة والألم ، فقد تذكرت موت « خاي » زوجها ذي الوجه الضاحك والكتفين

المريضتين ، فهو الآن مع اوزيريس في مملكة الأموات ، تاركاً إياها لوحدتها الموحشة ، بعد ان عاشت معه ثماني سنوات ، وكانت حين تزوجها أقرب إلى الطفولة ، وها هي ذي الآن قد أصبحت أرملة ، ورجعت مع طفلتها تيتي إلى بيت أبيها !

وخيل اليها في هذه اللحظة انها لم تغادر بيت أسرتها قط ، واطمأنت إلى هذا الخاطر ، عساها ان تنسى تلك السنوات الثمان التي كان يملؤها الهناء ثم انتهت إلى الألم والحزن !

وقالت تحدث نفسها : لن أفكر في الماضي فقد انتهى ، وهـا أنذا في بيت أبي ، وكل شيء باق كما كان من قبل ، وأنا ايضـاً لن البث حتى أعود كما كنت تماماً ، ولقـد نسيت تيتي أباهـا كذلك ، فهي تلعب مع لداتها ضاحكة .

واستدارت رنزنب بغتة واتخذت طريقهـا إلى البيت ، مارة ببعض حمير تحمل أثقالها إلى شاطىء النهر ، حتى وصلت إلى صوامع القمح وبعض المرافق ، ومن ثم ولجت البوابة إلى فناء الدار .

ولاحظت ان ابنتها تيتي تلعب بأسد خشبي صغير ينفتح فمه وينغلق بجذب خيط ، فتذكرت انها كانت أيضاً تلعب به في طفولتها .

وتدحرجت عند قدميها كرة كان أحد الأطفال يلعب بها ، فتناولتهـا ورمتها اليهم ضاحكة .

ثم مضت رنزنب إلى الشرفة الأرضية ودخلت الدار مارة بردهتها الفسيحة إلى الجزء الخلفي حيث جناح النساء .

واخترقت أذنيها أصوات عالية ، فوقفت تنصت مسرورة لسماع الضجة القديمة المألوفة .

أجل فقد كانت ساتيبي وكيت تتجادلان كالمعتاد . وتذكرت نبرات صوت ساتيبي في قوته وصياحه ، وساتيبي هي زوجة أخيها يحموز ، وهي

إمرأة طويلة القامة بادية النشاط ، مرتفعة الصوت ، ذات جمال ورغبـة في التسلط والسيطرة .

وكلما سكتت ساتيبي ، كانت رنزنب تسمع صوت كيت هادئـاً عنيداً ، وكانت كيت زوجة سوبك الوسيم ، وهي إمرأة بدينة عاطلة من الجمال ، لا تهتم إلا بأطفالها ولا تكاد تتحدث إلا عنهم .

وصاحت ساتيبي قائلة :

– هذا شيء فظيع ! . لو ان ليحموز همة فأر لما رضي بذلك لحظة . من الذي يدير الأمور في غياب امحوتب ؟ . يحموز طبعاً ، وأنا بصفتي زوجة يحموز يجب أن يكون لي حق الاختيار الأول للحصر والوسائد ، ولكن تلك الأمة السوداء التي تشبه جاموس النهر ..

وهنا سمع صوت كيت وهي تخاطب أحد اطفالها قائلة :

– كلا ! . كلا يا عزيزي ! . لا تأكل شعر الدمية .. خذ هـــذا فهو شيء أحسن تأكله .. انه قطعة حلوى !

فقالت لها ساتيبي :

– أما انت يا كيت فلا تعرفين الأدب ، انك لا تصغين لما أقوله ، ولا تجيبين بكلمة ، ان سلوكك شائن !

– إن الوسادة الزرقاء كانت لي دائماً .. آه ! أنظري الى عنخ الصغيرة ! إنها تحاول ان تمشي !

– انك بليدة الفهم مثل أطفالك ، ولكنك لن تحققي بغيتك بهذه السهولة ، فإن لي حقوقي وسأنالها !

* * *

وسمعت رنزنب وقع قدمين خلفها ، فاستدارت مرتاعة ، وإذا بها ترى المرأة

حنت ورائها ، فنظرت اليها وقد تملكها شعور كراهيـــة لا تدري له سبباً ، وقالت لها حنت وقد علت وجهها النحيل ابتسامة خفيفة :

– لعلك ترين يا رنزنب ان الأحوال هنا لم تتغير كثيراً ، إننا جميعا ما زلنا نصبر على حدة لسان ساتيبي ، ولا أدري كيف نصبر ؟! ولا شك ان كيت تستطيع ان تجادلها . اما انا فإني اعرف مكاني ولا اتخطى حدودي . إني مدينة لأبيك بالشكر إذ منحني المثوى والغذاء والكساء ، إني لدائمة العمل هنا او هناك . ولو كانت امك العزيزة على قيد الحياة لاختلف الامر ، أجـل فانها هي التي كانت تقدرني حق قدري ، فقد كنا بمثابة اختين ، لقد وفيت بوعدي لها ، اذ قالت لي وهي تجود بروحها : اعتني بالاطفال يا حنت . وقد اعتنيت بكم وكنت لكم بمثابة أمة رقيقة .

ثم انسلت كثعبان الماء ودخلت غرفة هناك ، ومضت رنزنب ، وقد ثار في نفسها بغضها القديم لحنت . ومن عجب انهم جميعاً يكرهون هذه المرأة

وكانت حنت امرأة لا تسر رؤيتها ، ولكنها برغم غباوتها البادية كانت تعرف كل ما يجري في البيت ، والفضـل في ذلك لتسللها دون صوت من مكان الى مكان ، وانصاتها لكل ما يقال متجسسة على من فيه .

وقفت رنزنب لحظة تستمع الى جدال زوجتي اخويها ثم ذهبت الى غرفة صغيرة خاصة بجدتها ايزا .

وقفت ساكنة وقد اغمضت عينيها نصف اغماض ، ومن ثم كانت تسمع في آن واحد ضجيج المطبخ ، صوت جدتها الحاد المرتفع ، صياح ساتيبي ، صوت كيت الخافت مؤكدة ما تقوله في عناد .. بلبلة اصوات من نساء يتكلمن ويضحكن ويصخبن ويصرخن !

وشعرت رنزنب انها تكاد تختنق في هذه البيئة النسائية الصاخبة . اجل انه منزل مملوء بنساء لا يهدأن قط ، بل لا يفتأن يتكلمن ويصحن ويقلن

اشياء لا يفعلنها ابداً !

وخرجت رنزنب من الدار مسرعـــة ، فأبصرت سوبك عائداً من الحقول ، وشاهدت على بعد يحموز قاصداً الى المقبرة ، فاتخذت طريقهـا صوبه ومضت في درب يوصل الى صخور الكلس (الجير) التي شيـدت المقبرة فوقها .

ولما بلغت رنزنب نهاية الدرب المنحدر ، رأت اخاها يحموز يتحدث مع حوري وكيل اعمال ابيها

لقد كانت منذ نعومة اظفارها تحب اخاها يحموز وكذلك كان حوري دائماً لطيفاً معها منذ كانت طفلة صغيرة .

وكان حين غادرت المنزل منذ ثمان سنوات ، شاباً رزيناً كثير الصمت ، والآن خيل اليها انه لم يتغير ، وان كان اكبر سناً من قبل ، ولم تتغير ابتسامته الرزينة .

وكان يحموز وحوري يتمتمان معاً قائلين :

– ثلاثة وسبعون اردباً من الشعير مع ابي الصغير .. واذن .. تكون الجملة مائتين وثلاثين أردباً من القمح ، ومائة وعشرين اردباً من الشعير !. ولكن هناك ثمن الخشب ، وقـد دفع ثمن المحصول في (برها) مبـادلة بالزيت !.

وظلا يحسبان ، بينما جلست رنزنب تستمع صامتة ، ثم قـــام يحموز وناول حوري ورقة البردى ، ومكثت رنزنب ساكتة وما لبثت ان امسكت برقعة الورقة وسألت حوري :

– اهذا كتاب من ابي ؟

– نعم .

– ماذا يقول فيه ؟

فتناول حوري الخطاب واخذ يقرأ بصوت هادىء :

– خادم المزرعة وخادم كا ، امحوتب ، يقول : عسى ان يكون حظك كحظ من يعيش مليون سنة . عسى الرب (حيرشاف) رب (هيراكليوبوليس) وجميع الأرباب ان يعاونوك . عسى الرب (بتاح) يسر قلبك بالعمر الطويل ..

إن الإبن يخاطب أمه ايزا سائلا :

كيف حالك في معيشتك وطمأنينتك وصحتك ؟. وكيف حال أهل الدار جميعاً ؟. كيف أنتم ؟.

وأنت يا بني يحموز :

كيف حالك في معيشتك وطمأنينتك وصحتـــك ؟ يجب ان تجني من الأرض أكبر محصول..أبذل كل جهد وافلح الأرض بكل همة وإذا وجدتك مجتهداً فإني سأدعو الرب لك .

وهنا ضحكت رنزنب قائلة :

– إن يحموز المسكين يرهق نفسه أشد إرهاق في العمل !

فاستأنف حوري قراءة الخطاب :

– إعتن يابني ابي فقد علمت انه مستاء ، ولا تدع ساتيبي تسيء معاملة حنت ، ولا تنس ان تكتب لي عن الكتان والزيت واحرس محصول القمح واحرس كل شيء يخصني ، لأني أعدك مسؤولاً عن كل شيء ، وإذا غمر الماء أرضي فالويل لك ولسوبك

فقالت رنزنب :

– إن أبي لم يتغير ، فهو لا يفتأ يحسب ان الأمور لا تجري كما ينبغي لها إذا كان غائباً .. نعم ان كل شيء كما هو !

فلم يجب حوري وإنما تناول رقعة من البردي وأخذ يكتب .

ثم قالت له فجأة :

– لقد كنت تصلح لي الأســد الخشبي ، الذي كنت ألعب به ..

أتذكر ذلك ؟

ففوجيء بهذا السؤال ، لكنه رد بعد هنيهة بقوله :

– نعم .. كنت أصنع ذلك من أجلك يا رنزنب .

– إن تبقي تلعب به الآن ، إنه الأسد نفسه !

ثم تنهدت وقالت :

– حين ذهب خاي إلى اوزيريس ، تولاني حزن شديد ، ولكني الآن قد عدت إلى المنزل ، وسأهنأ بمعيشتي ثانية وأنسى ، لأن كل شيء هنا لم يتغير . نعم لم يتغير شيء مطلقاً !

فسألها :

– أتظنين ذلك حقاً يا رنزنب ؟

فنظرت اليه متعجبة قائلة :

– ماذا تعني ؟

– أعني أنه يوجد تغيير دائماً . وإن ثماني سنوات ، ليست بالشيء القليـل !

– نعم ، ولكن لم يتغير شيء هنا !

– إذن سيحصل تغيير !

– كلا ! . أود لو يبقى كل شيء كما هو !

– ولكنك أنت نفسك الآن غير رنزنب التي ذهبت مع خاي منـذ ثماني سنوات !

– أعتقد إني عدت .. او على الأقل سأعود كما في السابق !

فهز حوري رأسه قائلا :

– إن أحداً لا يستطيع ان يعود الى الوراء !

– ولكني لا أزال رنزنب !

– نعم ، غير ان رنزنب يضاف اليها كل حين شيء من أثر الزمن ، فأنت

تتطورين تطوراً لا ينقطع !

فهزت رأسها قائلة :

– كلا ، وأنت لا تزال حوري .

ورد عليها هو قائلاً :

– هذا ما تظنينه ، ولكن الواقع لا يؤيد هذا الظن .

فأطرقت هنيهة مفكرة ثم قالت :

– كيف ؟. إن يحموز ما زال كما كان على قلقه وخوفه ، وساتيبي لا تزال تنهره ، وهي وكيت لا تزالان تتشاجران بسبب الحصر والخرز ، وحين أعود اليهما سأجدهما تضحكان معا بعد الشجار .

وحنة لا تزال تدب على الأرض وتستمع لما يقال ، ثم تشكو حالها وتتحدث عن إخلاصها ..

وجدتي تلوم خادمتها في شأن القماش .

فقد وجدت كل شيء كما كان .. وقريباً يرجع أبي من سفره ، ويحدث ضجة ثم يقول لهذا :

« لماذا لم تفعل ذلك ؟ »

ويقول لذاك :

« كان ينبغي ان تفعل ذلك ! »

وسيبدو يحموز مهموماً ، بينما يضحك سوبك ولا يكترث ، وسيدلل أبي أخي الصغير ايبي ، مع انه صار الآن في السادسة عشرة من عمره كما كان يدلله حين كان طفلاً صغيراً ..

وهكذا .. لا يتغير شيء إطلاقاً !

وسكتت رنزنب وقد أنهكها الكلام ..

فقال حوري بلطف :

– انك لا تدرين يا رنزنب ان هناك شراً يأتي من الخارج فيبدو اثره يصيب

الناس جميعاً ، وان هناك شراً ينبعث من الداخل دون ان تكون له دلالة خارجية تنم عنه ، وهو ينمو ببطء يوماً بعد يوم !

فنظرت اليه رنزنب متعجبة ، وكان يتكلم وكأنما يحدث نفسه . ثم قالت له :

– ماذا تعني بذلك يا حوري ؟. انك تخيفني !

– انا نفسي خائف !

– ولكن .. ماذا تعني ؟. وما ذلك الشر الداخلي الذي تتحدث عنه ؟

فنظر اليها مبتسماً وقال :

– انسي ما قلته يا رنزنب .. انما كنت أفكر في الآفات التي تصيب المحاصيل !

- ٢ -

- كانت ساتيبي تكلم يحموز قائلة له :

- يجب ان تثبت وجودك . هذا ما أقوله لك ، ولن يقدروك الا اذا أثبت وجودك .. ان أباك لا يفتأ يقول :

« يجب عمل هذا ، ويجب ترك ذاك ، ولماذا لم تفعل ذلك ؟ »

وأنت تصغي كالحمل الوديع ولا ترد الا بقولك : « نعم ، نعم » ، وتعتذر عن أشياء يزعم أبوك انها كان ينبغي ان تعمل . الرب وحده يعلم انها مستحيلة ! ان أباك يعاملك كأنك طفل او على الأكثر كأنك غلام صغير ، كما لو كنت في مثل سن ابيي !

فقال يحموز في صوته الهادىء :

-- ان أبي لا يعاملني أبداً كما يعامل ابيي .

فوضعت ساتيبي يدها على كتف زوجها وقالت :

- نعم ، انه حقاً لا يعاملك كما يعامله ، فقد شغف حبـاً بذلك الولد المدلل .. ولكن التدليل يفسد ابيي يومـاً بعد يوم ، فهو يتسكع مختالاً ، ولا يؤدي عملاً يذكر ، معتمداً على تسامح ابيه معه ، وانتصاره له على طول الخط . انك انت وسوبك يجب ان تتخذا موقفاً حازماً في شأن هذا الغلام .

فهز يحموز كتفيه وقال :

- وما فائدة ذلك ؟

- انك توشك ان تفقدني عقلي .. انت انسان بلا روح ، وكأنك افرط وداعتك امرأة لا رجل ! انك تسلم بكل ما يقوله أبوك ، وتقر كل ما يفعله .

- وماذا أصنع ؟ اني أحب أبي كثيراً .

- أجل انت تحبه كثيراً ، وهو يستغل ذلك كل الاستغلال !. انك تقبل منه التقريع واللوم بوداعتك المعهـودة ، وتعتذر عن اشياء ليست من ذنبك !. يجب ان تناقشه وترد عليه كما يفعل سوبك !. ان سوبك لا يهاب أحداً .

- اجل . هذا حق يا ساتيبي ، ولكن لا تنسي ان ابي يثق بي أنا لا بسوبك انه لا يعتمد عليه مطلقاً ويترك كل شيء لتقديري !

- ولهذا السبب يجب ان يدخلك ابوك شريكاً في المزرعة ! انك تنوب عنه في المزرعة في سفره ، وتقوم بمهمة (كاهن كا) ، وهو يـترك الأمور بيديك ، ومع هذا كله ليست لك سلطة !. يجب ان تكون هناك تسوية عادلة . انك الآن رجل في وسط العمر ، فلا يصح ان تعامل كما لو كنت طفلاً .

- ان أبي يحب ان يسير الأمور بنفسه .

- انه ليسره ان يرى كل فرد بالدار معتمداً عليه ملبياً لطلباته ، ولكن هذا أمر سيء جـداً ، ويزداد سوءاً مع الزمن . ويجب عليك حين يعود من السفر ان تصارحه بجرأة ، وان تطالبه بتسوية مدونة في وثيقة ، وان تصر على ان يكوون لك مركز محدد .

- انه لن يصغي الي .

- اذن يجب عليك ان ترغمه على الإصغاء .. آه لو كنت انا رجلاً !.

لو كنت أنا في مكانك يا يحموز لعرفت ماذا أفعل ! إنني أحيانـــا أشعر بأني تزوجت دودة !

فاحمر وجه يحموز حين سمع ذلك وقال :

— سأرى ما يمكنني عمله .. لعلي .. أجل لعلي أتحدث معه .. وأرجوه !

— ليس المهم أن تكلم أباك ، ولكن المهم أن تعرف كيف تكلمه ، وأن تكون رجلا لا فأراً حينذاك !



كانت كيت تلاعب ابنتها الصغرى (عنخ) التي تحبو أمامها ، وكلمـــا أمسكت هذه عن الحبو أخذت تشجعها بكلمات ضاحكة . ثم تلفت نظر سوبك إلى تعثر صغيرتهما ، ولكنها لم تلبث أن أدركت انه غير ملق باله اليها بل يجلس مقطب الجبين شارد الفكر فسألته :

— ماذا بك يا سوبك ؟ إنك لا تنظر إلى عنخ ، ألا يهمك أن تراقبها وهي تحبو وتتعلم المشي ؟

فقال سوبك بضجر :

— عندنا أشياء أخرى تستحق التفكير والقلق !

— أليس كل شيء على ما يرام ؟

فقال سوبك بكدر :

— إن أبي لا يثق بي ، إنه شيخ عتيق في تفكيره ، ولكنه مع ذلك يصر على أن يرسم بنفسه خط السير لكل عمل يؤدى هنا ، ولا يـــترك لي حرية التصرف في أي شيء !

— أجل ، هذا أمر لا يسر !

— لو ان يحموز كان أكثر حزماً ، ولو انه يسندني ، لكان هناك أمل

في جعل أبي يرى الحقيقة بعينيه ، ولكن يحموز جبان وهو ينفذ تعليمات أبيه بحذافيرها !

وهنا رمت كيت بعض الخرز للطفلة وهي تقول :

— هذا صحيح !

بينما واصل سوبك كلامه فقال :

— على اني فيما يتعلق بالخشب سأقول لأبي بعد عودته أني تصرفت حسبما رأيت ، وإني آثرت أن أتسلم الشحنة كتاناً بدلاً من الزيت !

فقالت وهي ترقب طفلتها :

— إنك شجاع وبارع يا سوبك !

ولكن سأسمعه بعض الحقائق هذه المرة إذا تجرأ على انتقادي ، وإذا لم يترك لي حرية التصرف فسأغادر هذه المزرعة وأذهب بعيداً ؟

— تذهب بعيداً ؟ أين ؟

— إلى حيث أجد عملا ، فاني لا أطيق بعد اليوم أن ينهرني شيخ مغرور غير تارك لي مجالاً للتصرف !

— كلا ! كلا يا سوبك ، إني أقول لك : كلا !

فنظر اليها ملياً متعجباً من لهجة الحزم التي بدت منها وهي التي اعتادت الخضوع له والموافقة على كل ما يقوله ، وسألها قائلا :

— ماذا تعنين يا كيت ؟

— إني لن أدعك ترتكب هذه الحماقة ، إن المزرعة كلهـــا ملك أبيك ، سواء منها الأرض والمزروعات والماشية والأخشاب وحقول الكتـــان ، وكل شيء ! وحين يموت أبوك يصبح ذلك كله لك وليحموز ولأولادنا ، فإذا اختلفت مع أبيك وغادرت بيته فإنه يقسم نصيبك بين يحموز وإيبي ، وأنت تعلم انه يؤثر إيبي بالنصيب الأوفى من حبه . ولا شك في أن أبي يعرف ذلك ويستغله ، وهو يتمنى أن تتشاجر مع أحوتب وتغادر بيته ، كلا ! إن علينا أن نفكر

في أطفالنا ومستقبلهم !

فنظر اليها وقال :

– إن المرأة داهية ، ما كنت أحسبك يا عزيزتي بعيدة النظر إلى هذا الحد

– لا تتشاجر مع أبيك ولا ترد عليه ، بل اعتصم بالصبر مرة أخرى !

– لعلك على صواب ، ولكن قد تستمر هذه الحالة سنوات عديدة أخرى يجدر بأبي أن يشركنا معه في المزرعة .

– لن يفعل ذلك ، فإنه يحب أن يقول دائماً انه يطعمنا ويكسونا وإننا كلنا عالة عليه ، وإننا من دونه ما كنا لنجد مثوى لنا !

– يبدو لي أنك لا تحبين أبي يا كيت ؟

ولم تجب بشيء ، بل التفتت إلى صغيرتها عنخ ونادتها قائلة

– تعالي يا عزيزتي ، هذه دمية لك تعالي !

فنظر سوبك إلى رأسها الأسود نظرة حائرة ثم مضى في سبيله .

* * *

بعثت إيزا في طلب حفيدها إبي فمضى اليها ، وهو فق وسيم الطلعة بادي السخط ، فأخذت تنظر اليه بعينيها الضيقتين وتعنفه بصوتها الصارخ قائلة :

– ما هذا الذي أسمعه عنك ؟ إنك لا تريد أن تفعل هـذا ولا تحب أن تفعل ذاك ، إنك لا ترضى أن ترعى الثيران ، وتأبى أن تصحب يحموز أو تعمل في فلاحة الأرض ! كيف الأمور إذا كان طفل مثلك يفرض ما يريده على الكبار ؟

فقال ابي عابساً :

– إنني لست طفلاً ، بل أنا شاب ، ولا أحب أن اعامل كطفل فأ كلف

هذا العمل أو ذاك دون أن يسمع لي رأي ، ودون ان يدفع لي أجر ، بل أتلقى دائماً أوامر من يحموز ! ماذا يحسب يحموز نفسه ؟

– إنه أخوك الأكبر ، وهو الذي يشرف على المزرعة حين يكون ابني امحوتب غائباً .

– إن يحموز غبي .. إنه بطيء الحركة ، بليد الفهم .. وأنا أبرع منه كثيراً ، وسوبك غبي أيضاً برغم كل تفاخره ببراعته ! لقد كتب أبي اليهما موصياً بأن أؤدي العمل الذي يروقني .

– إنك غلام أفسده التدليل . وسوف أقول ذلك لأمحوتب

– إن أبي يقدر رجاحة رأيك .

– قد يكون هذا ، لكنك يجب ان تعمل ، وان تطيع .. ولا تنس انك أصغر أفراد الأسرة سناً .

– وما شأن السن في ذلك ؟ إن أبي صاحب الأمر هنا ، وأنا أعرف كيف أسيره . وأنت تعرفين ان أبي رجل ضعيف رغم كل كلماته الضخمة وانه ..

ولم يتم ابي كلامه ، إذ رأى جدته تنظر فوق كتفه إلى ما وراءه ، فاستدار فرأى حنة واقفة خلفه ، وما لبثت ان قالت له :

– أتقول ان أمحوتب رجل ضعيف ؟ أحسبه لا يسره ان يسمع ان هذا رأيك فيه .

فضحك ابي ضحكة تدل على القلق وقال لها :

– لكنك لن تقولي له ذلك .. تعالي يا حنة وعديني بذلك

فتقدمت حنة حتى وقفت بجانب ابزا وقالت له :

– إني لا أحب الفتنة وانت تعلم ذلك . إني مخلصة لكم جميعاً . ولا أنقل أي كلام إلا إذا شعرت بأن واجبي يقتضيني ذلك .

– كنت أقصد مماكسة جدتي بما قلته . وهذا كل ما في الأمر .. وسأقول ذلك لأبي .

وأومأ برأسه لحنة وخرج من الغرفة .
فنظرت حنة خلفه وقالت لايزا :
فردت ايزا بحدة :
- إنه يقول كلاماً خطيراً . ولا أحب الخواطر التي تجول بذهنه . ان امحوتب يدلله أكثر مما ينبغي .
ثم سألتها فجأة :
- هل يحموز بالدار ؟
- نعم ، قد رأيته قادماً منذ حين .
- إذن .. إذهبي وأبلغيه اني اريد ان أكلمه .

فخرجت حنة وأخذت تبحث عن يحموز حتى وجدته عند الشرفة فأبلغته رسالة جدته فخف اليها وحياها ، فقالت له :
- ان أمحوتب سيأتي قريباً .
- أجل وهذا يسرني .
- هل كل شيء على ما يرام ؟
- نفذت تعليمات ابي بحذافيرها قدر إمكاني .
- وما عندك عن ايبي ؟
- ان ابي كثير التسامح معه ، وفي هذا ضرر بالغ له .
- يجب ان توضح ذلك لأمحوتب .

فبدا التردد على يحموز ، لكنها وعدته بأن تؤيده في ذلك
ولم يتكلم يحموز ، بل اكتفى بأن نظر اليها وقد احمر وجهه .
ثم خرج .

- ٣ -

امتلأت الدار حركة ، استعداداً لقدوم سيدها امحوتب ، وكانت مئات الارغفة تخبز ، وعشرات البط تحمر ، وفاحت رائحة الكرات والثوم والتوابل وكانت النساء يصحن ويصدرن الاوامر ، والخدم يجرون هناوهناك .. وفي كل مكان كنت تسمع همهمة تقول :
- السيد . السيد قادم !
وكانت رنزنب مشغولة بعمل أكاليل من الخشخاش وأزهار اللوتس وقد غمرها شعور بالسعادة
أجل ان أباها عائد الى بيته !
انها في الاسابيع القليلة الاخيرة ، وقد استطاعت ان تنزلق الى حياتها القديمة بالدار دون ان تشعر ، وقد ولى عنها احساس الغربة الذي ربما أثارته في نفسها كلمات حوري لها .
وقد نمى اليهم ، ان رب الدار سيصل قبل غروب الشمس ، وأمر أحد الخدم ، بأن يقف على شاطىء النيل ليعطي إشارة ، حين يرى سفينة سيده تقترب .
وبغتة ارتفع صوته بالنداء المتفق عليه .
ورمت رنزنب ما كان في يدها من أزهار ، ثم جرت مع الآخرين صوب

مرسى السفن على شاطىء النهر ، وكان يحموز وسوبك قد سبقا الى هناك ووقفا وسط جمع من القرويين والصيادين والعمال والزراعيين ، يهتفون ويلوحون بأيديهم .

وكانت هناك سفينة ذات شراع مربع تجري بالنهر مع ريح الشمال وخلفها سفينة المؤونة تحمل رجالاً ونساء .

وتبينت رنزنب على بعد أباها جالساً وبيده زهرة لوتس والى جانبه امرأة حسبتها مطربة .

وعلت صيحات المنتظرين على الساحل ، ولوح امحوتب محيياً ، وأخذ الملاحون يتأهبون لرسو السفينة وارتفعت كلمات الترحيب بالسيد ، والحمد للآلهة على سلامته .

وبعد لحظات ، نزل امحوتب الى الشاطىء ، وحيى أفراد أسرته وبقية المستقبلين .

ونظرت رنزنب الى أبيها ، فخيل اليها ان جسمه نحل وانكمش ، عما كان عليه

وقال امحوتب وهو يقبل أبناءه واحداً بعد آخر :

— يا عزيزي يحموز ، اني واثق انك كنت نشيطاً في غيابي . وانت يا سوبك يا بني الوسيم لا تزال مرح القلب كما أرى . وهذا هو ايبي الاعز . دعني أنظر اليك .. لقد نموت وكبرت وصرت أقرب الى الرجولة . وانت يا رنزنب يابنتي العزيزة . لقد عدت الى بيتك . وأنتما يا ساتيبي وكيت . انكما ايضاً ابنتان لي . وحنة . حنة المخلصة ..

وكانت حنة راكعة تقبل ركبتيه ، وتمسح دموع الفرح في عينيها بشكل يلفت الانظار .

فقال لها امحوتب

— يسرني ان أراك يا حنة ، هل انت بصحة جيدة ومسرورة ؟ انك على

اخلاصك الدائم لنا . هذا شيء يسر القلب .

ثم التفت الى حوري وقال له :

— وهذا حوري البارع بقلمه وحساباته . لا شك ان الخير قد زاد ؟

وبعد ان انتهت التحيات وخفت الضجة ، رفع امحوتب يده طالباً السكوت ثم قال بصوت مرتفع واضح :

— يا أبنائي وبناتي واصدقائي : عندي نبأ لكم .. اني مكثت سنين كما تعلمون وأنا وحيد من بعض الوجوه ، فإن زوجتي — أمكما يا يحموز وسوبك ، واخي ، امك يا ايبي ، قد ذهبتا كلتاهما الى أوزيريس منذ سنوات ، ولهذا جلبت لكما يا ساتيبي ويا كيت ، أختاً جديدة تشارككما في الدار . ها هي ذي خدينتي نوفريت التي ستحبانها من اجلي . وقد جاءت معي من ممفيس في الشمال . وستبقى معكما هنا لاسافر ثانية .

ثم أشار الى المرأة التي جاء بها معه .

وقد فوجىء أفراد الاسرة بقدومها ، فوقفوا واجمين. فقال امحوتب بلهجة تدل على شيء من الغيظ :

— تعالوا يا أطفال وحيوا نوفريت ألا تعرفون كيف تحيون خدينة أبيكم حين يحضرها الى بيته ؟

فحياها الجميع في شيء من التردد وكثير من البرود ، وهنا قال امحوتب بحماسة مصطنعة تغطي غيظاً مكتوماً :

— هذا حسن . يا نوفريت ، الآن تأخذك ساتيبي وكيت ورنزنب الى جناح النساء ، أين الحقائب ؟ هل جلبت من الشاطىء ؟

ولما ذهبت النساء نظر امحوتب الى اولاده وقال لهم :

— كيف حال المزرعة ؟ هل سار كل شيء بانتظام ؟

فبدأ يحموز يشرح ما تم قائلاً :

— ان الحقول الجنوبية التي كانت قد اجرت الى نخته ..

ولكن اباه قاطعه قائلا :

– دع التفاصيـل الآن ، يا يحموز ، فإن في امكانهـا ان تنتظر . اما الليلة فلدينا ابتهاج وفرح ، وغداً نشتغل ، انا وانت وحوري . تعال هنا يا ايبي يا ولدي ، وهيا بنا ندخل البيت . لقد طالت قامتك حتى علا رأسك رأسي .

ومشى سوبك عابساً وراء ابيه وايبي ، وهمس في اذن يحموز قائلا :

– حلى وثياب ؟! ألم تسمع ؟. لا شك انه أنفق في ذلك ايراد المزارع التي في الشمال ، ايرادنا !

فأجابه يحموز هامسا :

– صه حتى لا يسمعك !

وجاءت حنـة الى غرفة احوتب تبتسم ، واخـذت تعد له حماماً ، فقال لها :

– حسناً يا حنة ، وما رأيك في ذوقي واختياري ؟

– انها جميلة بل بارعة الجمال !. ما اجمل شعرها وما ابدع قوامها !. وماذا اقول اكثر من ذلك ؟ ان المرحومة زوجتك تسر في عالمها الآخر لانك اخترت مثل هذه الرفيقة الحسناء لتؤنس حياتك .

– اتظنين ذلك يا حنة ؟

فردت على الفور قائلة :

– انى متأكدة مما اقوله يا احوتب. انك بعد ان حزنت طول هذه السنين قد حان الوقت لان تستمتع بالحياة !

– وانا ايضاً حسبت انه قد آن الاوان لان اعيش كما يعيش رجل . لكن.. اتظنين ان زوجتي وولدي وابنتي قد ساءهن ذلك ؟

– يحسن بهن الا يستأن مما يسرك !. اليس جميع من في هذه الدار يعتمدون عليك في معاشهم ؟

– صدقت يا حنة ، صدقت !

فأتمت كلامها قائلة :

– إنهم يأكلون ويكتسون من خيرك ، وكل ما هم فيه من رغد ورخاء انما هو ثمرة جهدك وكدك !

– هذا صحيح ، اني دائمـاً أعهد فيك الذكاء وسلامة الحكم على الأمور يا حنة !

فتأوهت حنة وقالت :

– آه لو ان الآخرين قدروني مثل تقديرك لي !

– ماذا تعنين ؟ هل أساء احد اليك ؟

– انهم لا يقصدون الاساءة ، ولكنهم يفترضون دائماً اني استطيع العمل دون انقطاع ، واني لمسرورة بذلك ، ولكن كلمة محبة او تقدير هي كل مـا يحتاجه الانسان !

– ثقي انك ستسمعين مني دائما مثل هذه الكلمة ، ولا تنسي ان هذا البيت بيتك .

– انك كثير العطف علي يا سيدي .

ثم سكتت لحظة وقالت :

– ان العبيد مستعدون يا سيدي في الحمام بالماء الساخن .. وبعد ان تستحم وترتدي ملابسك تطلب امك اليك ان تذهب اليها .

– آه امي ؟ اجل ، اجل بالطبع !

وبدا عليه الارتباك وقال :

– بالطبع كنت انوي ان اذهب اليها لأحييها، ابلغيها اني قادم اليها .



كانت ايزا مرتدية احسن ثوب كتاني عندها ، وقد وقفت تنظر الى ابنهـا

باهتمام لا يخلو من سخرية ، وقالت له :

– مرحباً بك يا احوتب اذن قد عدت الينا ، ولم تعد وحدك كما سمعت ؟

فقال احوتب بشيء من الخجل :

– اذن قد سمعت ؟

– طبعاً سمعت ، ان البيت يملؤه طنين هذا النبأ . ويقولون ان الفتاة جميلة وانها صغيرة السن .

– انها في التاسعة عشرة من عمرها .. وليست قبيحة المنظر .

فضحكت ايزا بصوت يشبه صوت الدجاج وقالت :

– ليس هناك احمق مثل عجوز احمق !

– لست افهم ما تقصدين يا اماه .

– لقد كنت دائماً احمق يا احوتب !

فبان الكدر في وجهه وقال لها :

– اتحسبين ان من الشذوذ ان يجيء رجل بخدينة الى بيته ؟

– ليس هذا امراً شاذاً ، فان الرجال حمقى عادة !

– لست ادري اي حمق في هذا ؟

– اتحسب ان وجود هذه الفتاة هنا سيؤدي الى توافر الانسجام في الدار؟ ان ساتيبي وكيت ستثوران وستحرضان زوجيهما !

– وما شأنهما بذلك ؟ واي حق لهما في المعارضة ؟

فهزت رأسها متحسرة وقالت :

– ليس لهما حق مطلقاً !

فأخذ احوتب يذرع ارض الغرفة غاضباً وقال :

– الا يحق لي ان افعل ما اشاء في بيتي ؟ والآن وقد عدت لأنعم بشيء من السكينة يقال لي ان امامي صعاباً حتى انت يا اماه تنكرين علي ان تكون لي خدينة كغيري من الرجال !

لست غاضبة ، ولكني وجدت سبباً للتسلية ، فسيكون في هذا البيت رياضة شائقة استطيع ان ارقبها ، غير اني اقول لك : انك حين تسافر الى الشمال مرة اخرى يحسن بك ان تأخذ خدينتك معك !

– ان مكانها هنا في بيتي ! والويل لمن يسيء اليها !

– ان الأمر لا يتعلق باساءة المعاملة . ولكن تذكر ان من السهل ان تشعل ناراً في هشيم جاف ، ان المرأة شيء تافه وكأنها حلم من الأحلام ثم يأتي الموت في النهاية !

* * *

استمع احوتب صامتاً الى سوبك وهو يشرح ما تم في صفقة الخشب ، وما لبث احوتب ان قاطعه وقال له بحدة :

– نعم .. نعم ، لقد حسبت نفسك تعرف خيراً مما اعرف فخالفت تعليماتي .. ان الامر هكذا دائماً ، الا ان اكون هنا لأشرف بنفسي على كل شيء ، اني لا اتصور ماذا تصيرون اليه دوني !

وهنا قال سوبك في عناد :

– لقد لاح لي انه في الامكان جني ربح اكبر ، ولذا جازفت . ان الانسان لا يمكن ان يكون دائماً حذراً حريصاً .

– ليس لديك شيء من الحذر ، وانك دائماً متهور طائش سيء التقدير !

– وهل تترك لي أية فرصة لأمتحن فيها تقديري ؟

– لقد تصرفت هذه المرة ضد اوامري الصريحة .

– اوامرك ؟ أعلي أن اتلقى اوامر الى الأبد ؟ اني رجل ولست بطفل!

فتقدم منه احوتب وهو يتميز من الغيظ وصاح به قائلا :

ايها الولد الوقح . اتقول ذلك لأبيك؟ خذ حذرك والا طردتك من بيتي؟

– وإذا لم تأخذ أنت حذرك فسأغادر أنا بيتك ، ان بذهني آراء جديرة بأن تجلب الثروة لولا إني مقيد بالحذر والحرص ولا يسمح لي بحرية التصرف !

فسكت أحوتب هنيهة ثم سأله :

– هل انتهيت ؟

– أجل . ليس عندي ما أقوله ..

– إذن .. إذهب واطعم الماشية فليس هذا وقت الكسل .

فخرج سوبك غاضباً ومضى في سبيله .

وعندئذ تقدمت نوفريت بخطى بطيئة إلى أحوتب ، وكان واقفاً يحاسب ولده الآخر يحموز ويقول له :

– ما الذي دهاك حتى تركت سوبك يتصرف هكذا؟ كان يجب عليك أن تمنعه . ألا تعلم انه سيء التصرف في البيع والشراء ؟ إنه يتوهم إن الأمور تجري كما يتمنى أن تجري ..

فقال يحموز معتذراً :

– إنك يا أبي لا تدري الصعاب التي القاها ، لقد أمرتني بأن أعهد إلى سوبك في مهمة بيع الخشب ، فكان لزاماً علي أن أتركها له ليفعل فيها ما يراه ..

– وهل له رأي ؟ إن عليه أن يفعل ما آمره به ، وعليك أنت أن تنفذه لذلك .

فاحمر وجه يحموز وقال :

– أنا ؟وما هو سلطاني عليه

– أي سلطان ؟ إنه السلطان الذي أعهد فيه اليك .

– ليس لي مركز حقيقي ، لو إنني كنت شريكك قانوناً ..

وسكت إذ رأى نوفريت قادمة اليهما ، ثم قالت لأحوتب :

– ألا تأتي إلى الايوان الصغير بقرب البحيرة ؟ ان الجو رائع هناك ، وقد

أعدت لنا فاكهة وشراب ، لا شك إنك قد انتهيت من إعطاء أوامرك !

– سآتي بعد لحظة يا نوفريت !

– تعال الآن ، أريد منك أن تأتي الان !

فبدا عليه السرور والخجل معاً .. وقال يحموز بسرعة قبل أن يدع لأبيه فرصة للكلام :

– أريد أن اكلمك أولاً .. في أمر هام .. أريد أن أطلب اليك ..

فأدارت نوفريت ظهرها ليحموز وقالت لأحوتب :

– الا تقدر ان تفعل ما تشاء في بيتك ؟

وعندئذ قال ليحموز بحدة:

– كلمني في فرصة اخرى!

ثم تركه وخرج مع نوفريت .

فوقف يحموز ينظر اليهما وقد جمد في مكانه من الشرفة .

وما لبثت ساتيبي أن اقبلت اليه من داخل الدار فسألته باهتمام :

– هل كلمت أباك ؟ وبماذا أجاب ؟

– لا تكوني قليلة الصبر يا ساتيبي ، إن الظرف لم يكن مناسباً .

فصاحت به قائلة :

– هذا ما تقوله أنت ! وهذا ما سوف تقوله دائماً ! ولكن الحقيقة انك تهاب أباك ، ألم تعدني بأن تكلمه في أول يوم يعود فيه . ولكن ماذا حدث ؟

وسكتت من فرط الجهد ، فقال لها يحموز بهدوء :

– إنك مخطئة يا ساتيبي ، لقد شرعت اكلمه ولكننا قوطعنا .

فصاحت مندهشة :

– قوطعتما ؟ ومن ذا الذي قاطعكما ؟

فتمتم قائلاً : نوفريت !

وهنا قالت ساتيبي :

- نوفريت ؟ تلك المرأة ؟ ان أباك ما كان يخلق به ان يترك خدينته تقاطعه حين يتحدث في شأن أعماله مع ولده الأكبر ، ان النساء لا يصح ان يتدخلن في الأعمال !

ولعل يحموز كان يتمنى في قرارة نفسه لو تعمل ساتيبي وفق كلمتها هذه .. ولكنها لم تترك له فرصة للكلام ، واستطردت تقول :

- كان ينبغي لأبيك ان يوضح لها ذلك دون ابطاء .

- ان أبي لم يبد عليه انه استاء من مقاطعتها لنا .

- ان هذا امر شائن ! ان هذه المرأة قد سحرته ، وهو يتركها تقول وتفعل ما تشاء ..

وكان كلامها ينبيء عن معنى خفي ، ثم قالت :

- ان اباك لن يكون هنا دائماً .. ولن يلبث حتى يسافر ثانية الى املاكه في الشمال ، وعندئذ سترى !

ثم ضحكت ساتيبي ضحكة عالية جافة وتركت زوجها عائدة من حيث أتت ..

* * *

كان الأطفال كعادتهم يجرون ويلعبون عند البحيرة . وكان احوتب جالساً يحتسي الجعة بجانبه نوفريت ، ونظر الى الأطفال ثم قال :

- ان الأطفال مولعون باللعب على حافة البحيرة ، ولكن ما اشد ضجيجهم

- أجل وقد كان ممكناً أن يشمل السكون هذه البقعة ! على انه حيث يجلس رب الدار ملتمساً الهدوء يجب أن يقابل بالاحترام اللائق !

وكانت هذه فكرة جديدة لم يعرفها قبلاً ، فقال بتردد :

- إني في الحقيقة لا أبالي ضجيجهم ، وهم قد اعتادوا اللعب هنا .

- حين تكون بعيداً من هنا لا ضير من ان يلعبوا ، غير انه حيال ما تبذله لأمرتك يجب ان تلقى منها قدر أكبر من الاحترام .

- انك شديدة الرعاية يا نوفريت . أجل أنت حقاً فتاة طيبة لا تفكرين إلا في راحتي .

- إن ما يسرك يسرني .

ثم توجهت الى كيت قائلة لها بجفاء :

- خذي الأطفال بعيداً يا هذه !

فنظرت اليها دون ان تدرك ما قالته لها وسألتها :

- بعيداً ؟ ماذا تعنين ؟. إنهم يلعبون هنا دائماً .

- إن احوتب يريد السكون ، وهؤلاء الأطفال يحدثون ضوضاء .

- إحذري ما تقولين يا نوفريت !. ان أحوتب يفرح برؤية أحفاده يلعبون هنا ، وقد صرح بذلك .

- ليس اليوم !. إنه قد بعثني اليك لأبلغك رغبته في ان تدخلي هذه الذرية الصاخبة إلى الدار فإنه يريد ان يجلس معي في هدوء !

فتمتمت كيت قائلة :

- معك ؟

ثم مضت من فورها إلى احوتب قائلة له :

- إن خدينتك تزعم أن علي ان آخذ الأطفال إلى داخل البيت . لماذا ؟. وما هو الخطأ الذي أتوه ؟. ولماذا يبعدون من مكان لعبهم ؟

فردت نوفريت بصوت ناعم :

- حسبت ان رغبة سيد الدار كافية وإنها لا تناقش !

فانتهز احوتب هذه الفرصة وقال :

- صدقت ! لماذا ينبغي لي ان أبدي أسباباً ؟ لمن هذه الدار ؟

فأخذت كيت تصعد بصرها في نوفريت قائلة :

— أحسبها هي التي أرادت إبعادهم !

— إن نوفريت تفكر في راحتي .. ومتعتي . لا أحد غيرها في هذه الدار يراعي ذلك . اللهم إلا حنة المسكينة !

فسألته كيت :

— إذن .. لا يصح أن يلعب الأطفال هنا بعد اليوم ؟

— نعم .. حين أكون هنا لأستريح .

فلم تقدر كيت ان تكبح جماح غضبها وصاحت به قائلة :

— لماذا تدع هذه المرأة تبغضك فيمن هم من لحمك ودمك ؟

فغضب وصاح بها قائلا :

— إني أنا الذي يقرر ما يفرض ان يعمل هنا ، لا أنت !

وقفت كيت لحظة بلا حراك ، ثم ردت بصوت خلا من كل عاطفة :

— سآخذ الأطفال الى داخل المنزل .

وسارت خطوة او خطوتين ، حتى إذا صارت أمام نوفريت قالت لها همساً :

— هذا كله من فعالك . لن أنسى . كلا لن أنسى !

— ٤ —

تنفس أمحوتب الصعداء إذ انتهى من أدعيته وصلواته ، وقام بصب السوائل وحرق البخور وتوزيع الصدقات ، وكل ما يوجبه عليه مركز كاهن المقبرة ، وضميره الحي من جميع الوجوه .

وما لبث أن عاد إلى الغرفة المجاورة للمقبرة ، حيث كان حوري ينتظره ، وأخذا يبحثان شؤون الزراعة ، والحاصلات والماشية والأخشاب وأرباحها .

وبعد نحو نصف ساعة أومأ امحوتب برأسه مرتاحاً وقال لحوري :

— إنك بارع في الأعمال يا حوري .

فابتسم هذا وقال له :

— ذلك لأني قضيت عدة سنوات وكيلا لأعمالك .

— وانك لوكيل أمين . والآن اريد أن أبحث معك أمراً آخر : فإن ابي يشكو من ضآلة مركزه وتبعيته لأخيه الأكبر .

— إنه لا يزال صغير السن .

— ولكنه يبدي مقدرة فائقة .. وهو يشعر بأن أخويه لا ينصفانه . والظاهر ان سوبك يعامله بعنف ، وإن ما يتخذه يحموز من حيطة وحذر يضايقه . وهو لا يريد ان يتلقى أوامر إلا مني أنا وحدي بحسباني أباه ، ولي

عليه هذا الحق

– هذا صحيح ، وقد لفت نظري ان هذه نقطة ضعف هنا في المزرعة . أتسمح لي ان أتكلم في صراحة ؟

– تكلم كما شئت !.

– إنك حين تسافر ، يجب ان تترك خليفة لك ، مزوداً بسلطة حقيقية .

فقال الحوتب :

– الست أعهد في أعمالي اليك والى يحموز ؟

– أجل اننا ننوب عنك في غيابك ، ولكن هذا لا يكفي . لماذا لا تعين أحد أولادك شريكاً لك بعقد شرعي ؟

فعقد الحوتب حاجبيه ، وأخذ يذرع أرض الغرفة ذهاباً وجيئة .. ثم قال :

– وأي أبنائي ترشحه لذلك ؟ إن سوبك مستبد برأيه ولا يخضع لرأيي ولست أثق بسلامة حكمه في كل الأمور .

– إن يحموز أكبر ابنائك ، وهو لطيف ووديع ومخلص .

– أجل ، ولكنه هياب مستسلم ، يوافق كل إنسان على رأيه . لو كان ابي أكبر سناً .

– من الخطر ان تضع السلطة في يد فتى حدث ؟

– صدقت ، صدقت يا حوري . سأفكر فيما قلته لي . إن يحموز إبن طيب حقاً . ابن مطيع

– إني موقن انك ستتصرف بحكمة .

ثم تأوه الاب وقال :

– إن حكم أسرة لمهمة شاقة . والنساء خاصة تصعب سياستهن، فإن ساتيبي حادة الطباع وكيت دائمة العبوس . ولكني قد بينت لهما ان نوفريت يجب ان

تلقى المعاملة اللائقة ، وأحسب انه يمكن القول .

ثم أمسك ولم يتم كلامه إذ جاء في هذه اللحظة خادم رقيق ، ووقف يلهث تعباً من صعود الدرب المرتفع وقال :

– سيدي .. لقد وصلت سفينة بها كاتب يدعى كامني ، ومعه رسالة من ممفيس .

فقام الحوتب وقال :

– مشاكل جديدة ولا بد !. إذا لم أكن حاضراً بنفسي للإشراف على كل شيء فإن الأمور كلها تضطرب !

* * *

كانت رنزنب تتريض على شاطىء النيل ، واذا بها تسمع هرجاً وصياحاً وترى أناساً يجرون الى مرسى السفن ، فأسرعت لترى ما هنالك ، وسرعان ما أبصرت سفينة وقف بها شاب ما ان رأته وتبينت طلعته حتى كاد قلبها يقف عن الخفقان ، فقد خيل اليها انه (خاي) قد عاد اليها من عالم الاموات . ولكنها ما لبثت ان سخرت من نفسها ، ولا سيما بعد ان اقترب الشاب فإذا هو في مثل قوامه ولكنه أصغر منه سناً ، وله وجه وسيم وثغر ضاحك .

ثم سمعته يذكر لمستقبليه انه قادم من أملاك أبيها في الشمال ، وانه كاتب هناك واسمه كامني

فبعثوا الى أحوتب عبداً ينبئه بذلك ، واقتيد الكاتب الشاب الى داخل المنزل حيث قدم له طعام وشراب ، وسرعان ما جاء الاب وانهمك معه في حديث طويل .

ولم تهتم رنزنب كثيراً بهذا ، ولكنها قدرت براعة كامني في كشف ذلك

التلاعب ، ولم تشك في ان أباها سيقدر هذه البراعة أيضاً . ثم ما لبثت أن شغلت بما تلا ذلك من اصدار أبيها أمره باعداد معدات سفره دون ابطاء ، مع انه كان قد اعتزم ألا يسافر قبل شهرين !

ودعا الاب كل من في البيت وأخذ يصدر الاوامر بما يفرض ان يعمل ، ثم فصل ليحموز ما عليه فعله وما عليه تركه ، وأوصى سوبك بأن يتخذ غاية الحيطة في أمور أخرى ذكرها له .

وكان ذلك كله أمراً مألوفاً لرنزنب ، وقد لحظت ان يحموز شديد الإصغاء الى أوامر أبيه ونواهيه ، وان سوبك عابس كعادته ، وان حوري هادىء مطمئن . أما ابي فان أباه رفض مطالبه بحدة غير معتادة ، وقال له :

– انك أصغر سناً من ان يحدد لك مرتب خاص ، وعليك ان تطيع يحموز فانه يعرف رغباتي وأوامري .

ثم وضع يده على كتف ابنه الاكبر وقال له :

– اني أثق بك يا يحموز ، وحين ارجع من سفري سنتكلم معاً في مسألة الشركة .

فاحمر وجه يحموز من السرور ، ورفع قامته أكثر من قبل .. ثم قال :

– ان كل شيء سيجري وفق مشيئتك .. غير ان حنة أحياناً تثير فتنة بلسانها ..

– هذا هراء فان كل النساء كذلك، وأما كامني فانه سيبقى هنا وسيساعد حوري . وأما تلك الارض التي اجرناها الى المرأة يأبى ..

ومضى في حديثه فلم يغادر كبيرة ولا صغيرة من شؤون الاعمال المطلوبة في غيبته الا بسط رأيه فيها وتعليماته بشأنها . ولما حانت ساعة الرحيل شعر الاب بألم في احشائه وانتحى بنوفريت ناحية وقال لها :

– ألنت مرتاحة إلى البقاء هنا ؟ أليس الأفضل لك أن تصحبيني في سفري ؟

فهزت نوفريت رأسها وابتسمت قائلة :

– لن تغيب عني طويلا ..

– قد أغيب ثلاثة أشهر ، وربما أربعة ، من يدري ؟

– سأصبر حتى تعود ، وسأكون مرتاحة هنا .

– لقد أوصيت أبنائي جميعاً بأن تحاطي بكل رعاية ، وعلى رؤوسهم تبعة مثار اشكواك .

– إني موقنة بأنهم سيفعلون ما أمرتهم به .

ثم سكتت لحظة وسألته :

– من هو الجدير بثقتك هنا من غير أفراد الأسرة ؟

– حوري . إنه يدي اليمنى ، وهو ذكي حكيم .

– لكنه هو ويحموز بمثابة أخوين .. فربما ..

– إن كامني سيبقى هنا أيضاً وسآمره بأن يضع نفسه في خدمتك ، وإذا وجدت ما تشكين منه فاخبريه ليكتب إلي بشكواك .

هذه فكرة صائبة ، إن كامني قد جاء من الشمال ، وهو يعرف أبي ..

ثم قال لها أمحوتب :

– وهناك حنة أيضاً ..

فقطعت كلامه قائلة :

– آه .. حنة ؟ ألا تدعوها لتكلمها في ذلك أمامي الآن ؟

فأومأ برأسه موافقاً وقال:

هذه فكرة صائبة

ثم أرسل في طلب حنة فجاءت مهرولة وهي تغالي في إبداء الأسف لسفره فقاطعها قائلا :

- أجل ، أجل ، ولكن لا بد من السفر فإنه مقدر علي ألا القى راحة ولا استقرار .. إنك شديدة الاخلاص صادقة الولاء لي يا حنة ، ولهذا أعهد اليك في حراسة نوفريت أثناء غيابي ، إنها جد عزيزة علي .

- إن من يكون عزيزاً عليك لا بد أن يكون عزيزاً علي أيضاً .

- حسناً ، إذن عليك أن تخلصي لها الخدمة .

فالتفت حنة إلى نوفريت وقالت لها :

- إنك رائعة الجمال يا نوفريت ، وهذا أصل المتاعب ، فإن نساء الدار يشعرن بالغيرة منك ، ولكني سأعتني بك وسأنبئك بكل ما يقال وما يعمل ويمكنك أن تعتمدي علي !

فابتسمت نوفريت قائلة :

- إني أفهمك يا حنة ، وأحسبني أقدر أن أعتمد عليك !

فقال أمحوتب :

- إذن قد رتب كل شيء .. اجل إن كل شيء على ما يرام ، ان التنظيم سر القوة والنجاح ..

* * *

اعتادت رنزنب ان تصعد إلى المقبرة في أكثر الأيام ، وكانت أحياناً تجد هناك يحموز وحوري معاً ، واحياناً تجد حوري وحده ، غير انهـا كانت تشعر هناك دائماً بشعور الراحة والطمأنينة ، وكان يسرهـا أن تلقى حوري لارتياحها الى هدوئه ورزانته ، وكانت تجلس في ظل باب الغرفة الصخرية رافعة احدى ركبتيها بين يديها وتنظر إلى الوادي الأخضر يجري وسطه النيل متدفق الماء ساطعاً في ضوء الشمس .

وقد قالت لحوري يوماً .

- اني خائفة .

- مم تخافين يا رنزنب ؟

فسكتت لحظة، ثم قالت :

- أتذكر يوم قلت لي أن هناك شراً ظاهراً يأتي من الخارج وشراً خفيـاً ينبعث من الداخل ؟

- أجل أذكر ..

لقد حسبتك يومئذ تعني الآفات التي تصيب النبات ، ولكني أرى الآن ان قولك هذا ينطبق على الانسان أيضاً .

- هل أدركت ذلك ؟ أجل لقد أصبت يا رنزنت .

- إن ما قلته حادث الآن .. في بيتنا هناك .. فقد جاء شر من الخارج وأنا أعرف من جلبه ، انها نوفريت !

- أتظنين ذلك ؟

- أجل ، اني أعرف ما أقوله ، استمع الي يا حوري، حين جئت اليك هنا وقلت لك ان كل شيء كما كان في الماضي ، أما الآن فقد تغيرت الحال ، وهما تتبادلان الفاظاً مؤذية ، وكل منهما يسرها أن تجد كلامها قد أصاب الهدف وآذى الأخرى ، ان هذا فظيع يا حوري

- اني أعلم بحدوث هذه الأمور ، ولكن لماذا تلقين اللوم على نوفريت ؟

- لأن كل ذلك من صنعها ، فإنها تقول بضع كلمات ماكرة خبيثة فتشعل بها نار الشجار وهي بارعة في اختيار ما تقوله، وأحياناً أقدر ان حنة هي التي تخبرها .

- أجل ، وانا ايضاً أظن ذلك

- اني لا احب حنة ، فاني اكره طريقتها في التجسس هنا وهناك ، إنها تخلص لنا جميعاً ، ولكننا نبغضها جميعاً .

– ما أعجبك من طفلة رنزنب !.

ثم قطع كلامه فجأة وقال :

– ها هي ذي نوفريت مقبلة .

ونظرت رنزنب ، وأخذ الاثنان يرقبـان نوفريت وهي تصعد الدرب المنحدر الموصل إلى المقبرة ، ولما بلغت مكانهما إبتسمت إبتسامة ماكرة وقالت لرنزنب :

– إذن هذا هو المكان الذي تتسللين اليه كل يوم يا رنزنب ؟

فلم تجب رنزنب ، وشعرت بمثل شعور الطفل الذي يغضب حين يكشف أحد مخبأه .

ثم نظرت نوفريت حولها وقالت :

– أهذه هي المقبرة الشهيرة ؟

فأجاب حوري قائلا :

– أجل يا نوفريت .

فنظرت اليه وقالت له وهي تبتسم بخبث :

– لا شك في انك تجدها مربحة .. وأنت رجل أعمال بارع ، كما سمعت .

– إنها مربحة لنا جميعاً ، فإن الموت دائماً مصدر ربح .

وشعرت نوفريت برجفة إذ أبصرت موائد الصدقات ومدخل القبر والباب الكاذب الذي لا يولج وقالت :

– إني أكره الموت !

فقال حوري بهدوء :

– لا ينبغي لك ذلك ، فإن الموت هو المصدر الرئيسي للثروة في مصر . إن الموت هو الذي اشترى لك الجواهر التي تتزينين بها يا نوفريت . والموت هو الذي يطعمك ويكسوك !

فنظرت اليه ملياً وقالت :

– ماذا تعني بذلك ؟

– أعني ان امحوتب كاهن هذه المقبرة ، وكل ما يملك من أراض وماشية وخشب وكتان وشعير ، إنما هو هبة من قبر !.

وسكت برهة ثم استطرد قائلا :

– إننا نحن المصريين قوم عجيبون.. إننا نعشق الحياة ولذا نشرع مبكرين في التحضير للموت ، وفيه تنفق ثروة البلاد . في تشييد الأهرام والمقابر وصرف هبات القبور !.

فقالت نوفريت بعنف :

– دع حديث الموت يا حوري ، إني لا أطيق سماعه !

– لأنك مصرية صميمة ، فأنت تحبين الحياة .. لأنك تشعرين أحياناً بظل الموت قريباً منك !.

فأسكتته نوفريت بإشارة من يدها ، ثم خرجت من الغرفة ومضت هابطة الدرب .

فقالت له رنزنب :

– يسرني انها ذهبت . لقد أخفتها يا حوري .

– نعم .. وهل أخفتك أيضاً ؟

– كلا !. إن ما قلته صحيح ، غير اني لم أكن قد فكرت في الأمر من هذه الوجهة . إن أبي حقاً كاهن مقبرة !

ونظرت اليه نظرة حائرة . وما لبث ان لفت نظرها شيء آخر ، فقالت له :

– أنظر ! إن نوفريت هناك تتحدث مع سوبك .. إنها تضحك ! آه .. كلا . لا شيء . لقد حسبت ان سوبك سيضربها . ولكنها تدخل البيت الآن وسوبك قادم إلى هنا !

وجاء سوبك ثائراً يقول :

– ليت تمساحاً يلتهم هذه المرأة !. إن أبي لا شك قد جن إذ اتخذها خدينة له !

فسأله حوري :

– ماذا أخبرتك نوفريت ؟

فلم يجب سوبك ، وأخذ يمشي جيئة وذهاباً فوق المصطبة ، ثم تناول قطعة صخر وقذف بها إلى الوادي ، وكأنما سره صوت ارتطامها بالأرض ، فتناول قطعة أكبر ، وإذا به يرى أفعى كبيرة تخرج من تحتها وترفع رأسها ويسمع لها فحيح .

فتناول سوبك هراوة وأخذ يضربها بعنف ، واستمر يضربها وعيناه تكادان تقدحان بالشرر !

فصاحت به رنزنب قائلة :

– كفى يا سوبك . كفى ! إنها ماتت !

فتوقف عن الضرب وقال ضاحكاً :

– لقد نقص عدد الأفاعي السامة في العالم واحدة .

وضحك ثانية .. وكأنما سره ما فعل ، وعاد من حيث أتى ، هابطاً الدرب .

فقالت رنزنب لحوري بصوت ضعيف :

– يخيل لي ان سوبك يهوى القتل !

– نعم .

– إن الأفاعي خطرة . ولكن ما كان أجمل هذه الأفعى !

ثم نظرت الى الأفعى الميتة وشعرت برجفة .

وحين عادت رنزنب الى المنزل وجدت كامني جالساً في الشرفة الأرضية وأمامه لفة من ورق البردى ، وكان يغني فوقفت تستمع .

ثم احمر وجهها ، ودخلت المنزل مسرعة حتى كادت تصطدم بنوفريت .

فقالت لها هذه :

– لماذا تسرعين هكذا يا رنزنب ؟

وكان صوت نوفريت حاداً قاسياً . فنظرت اليها رنزنب متعجبة ورأتها لا تبتسم كعادتها ، بل يبدو عليها الجد والصرامة ويداها منقبضتان إلى جانبيها ، فقالت لها :

– إني آسفة ، يا نوفريت ، فإني لم أرك . والقادم من الخارج يجد هنا عتمة .

– أجل ، هنا عتمة . وفي الخارج ضوء وسرور ، لا سيما إذا كان كامني يغني وانت تصغين . إنه يجيد الغناء .. اليس كذلك ؟

– نعم .

– لماذا لم تمكثي لتسمعي . هل هذا يسوء كامني ؟

فسكتت رنزنب وقد شعرت بالغيظ والقلق . وعادت نوفريت تسألها :

– ألا تحبين أغاني الحب يا رنزنب ؟

– وماذا يعنيك من أمر ما أحب وما أكره ؟

فنظرت اليها نوفريت بخبث وردت :

– إذن .. فالقطط الصغيرة لها أظافر ؟

ولما سألتها تعنيه بذلك ، ضحكت ساخرة وقالت :

– أعني انك لست بلهاء كما يبدو عليك . وإذن انت تحسبين كامني وسيماً ، ولا شك في أن هذا يسره على كل حال .

فحدجتها رنزنب بنظرة إزدراء قائلة .

– حقاً .. انك بغيضة !

وتركتها ودخلت إلى جناح النساء في مؤخرة الدار ، بينما ضحكات نوفريت تلاحقها ، ويتخللها صوت كامني وهو ما زال ينشد أغنيته .

وفي تلك الليلة رأت رنزنب فيما يرى النـــائم كأنها مع خاي في زورق الأموات في العالم الآخر . وكان خاي واقفاً في مقدمة الزورق وهي لا ترى إلا مؤخرة رأسه .

ولما اقتربا من مطلع الشمس أدار رأسه فرأت انه ليس خاي لكنه كامني. وفي الوقت نفسه بدأت مقدمة السفينة ، وهي على هيئة رأس أفعى ، تضطرب. ثم إذا بها أفعى حية من نوع الكوبرا .

فقالت تحدث نفسها :

– إنها الأفعى التي تخرج من المقابر لتلتهم أرواح الموتى .

وتولاها الخوف حتى شـل حركتها ، ثم لحظت ان وجه الأفعى هو وجـه نوفريت ، فاستيقظت من نومها تصيح قائلة :

– نوفريت ! نوفريت !

ولما رأت ان ذلك كله كان حلماً ، بقيت ساكنة في فراشها وقلبهـا يدق دقاً عنيفاً ، وعبثاً حاولت ان تقنع نفسها بأن ذلك الحلم لا صلة له بالحقيقة ، ثم تذكرت فجأة ان سوبك وهو يقتل الأفعى ، كان يلفظ اسم نوفريت !

- ٥ -

لم تعـــد رنزنب تستطيع النوم الا لماماً بعد تلك الرؤيا ، وحينما اقترب الفجر ، وهي تتقلب مسهدة في فراشها ، تولاها شعور الخوف من شر محدق .

فنهضت وارتدت ثيابها ، ثم خرجت من المنزل مبكرة ، فقادتها خطاها الى شاطىء النيل كما اعتادت في الأيام الأخيرة .

وهناك شعرت رنزنب بشعور غريب لا تدري كنهه ، وشعرت بحاجتها الى شيء تجهله .

ثم رأت على الشاطىء شخصاً واقفاً لا يتحرك ، لكنه يرقب الزورق القاصد الى طيبة في اهتمام ملحوظ ، ومـــا لبثت ان رأت ان هذا الشخص ليس سوى نوفريت .

فحثت رنزنب خطاها حتى بلغت مكانها فوقفت الى جانبها ، فالتفتت نوفريت اليها لحظة ، ثم عادت تنظر الى النيل ، ووجهها جامد لا يعبر عن أية عاطفة .

فقالت لها رنزنب في خجل ظاهر :

– ان بالنهر سفناً كثيرة .

فلم تزد نوفريت على أن ردت :

— نعم .
ثم عادت الى ما كانت فيه من النظر الى النيل .
فسألتها رنزنب :
— هل النيل هكذا في منطقتكم بالشمال ؟
فضحكت نوفريت ضحكة قصيرة مرة وردت قائلة :
— كلا ! ان أبي تاجر في ممفيس . وهي مدينة مرحة فيها موسيقى وغناء ورقص ، وأبي كثير الأسفار وقد سافرت معه الى سوريا وبابلونيا ، وركبت معه السفن الكبيرة في عرض البحار !
— لا بد في ان الحياة هنا مضجرة لك !

وتذكرت رنزنب ما قالته لحوري بالأمس عن نوفريت من انها جميلة قاسية شريرة ، وأدركت في هذه اللحظة معنى قوله لهـا على أثر ذلك : « انت طفلة يا رنزنب » . فلا بد انه كان يعني ان ما قالته عن نوفريت ليس سوى هراء ، لأن الحكم على الناس لا يكون بهذه السهولة !

ثم نظرت اليها وقالت لها في خجل كخجل الأطفال :
— انك تكرهيننا جميعاً . وأنا أعرف السبب .. اننا لم نبد نحوك شيئا من العطف . لكن الوقت لم يفت بعد .. ولعل من الممكن ان نكون ، أنا وأنت ، بمثابة أختين . انك بعيدة عن كل من تعرفينهم ووحيدة هنا .. افلا يمكنني ان أساعدك ؟
— اذهبي عني بعيداً . لا أريد شيئا من أي أحد منكم ، انكم حمقى بلهاء .. هكذا أنتم جميعا بلا استثناء !
ثم انثنت راجعة صوب الدار .

وحينما ولجت نوفريت بوابة الدار وأخذت تعبر صحنها ، اندفعت طفلة من أطفال كيت تجري وراء كرة ، فدفعتها نوفريت دفعة قوية بعيداً من طريقها ، فقعدت الفتاة تبكي وتصرخ ، وعندئذ جرت نحوها رنزنب وقالت لنوفريت

بغضب :
— لا يليق بك ان تفعلي ذلك يا نوفريت ! أنظري فقد جرحت الطفلة في ذقنها !
— أيجب ان أحذر كيلا أوذي هؤلاء الأطفال المفسدين ؟. ولماذا ؟. هل تراعي أمهاتهم احساسي ؟

وجاءت كيت من داخل الدار مهرولة ، اذ سمعت صراخ ابنتها ، وجرت اليها وجعلت تفحص الجرح الذي بذقنها ، ثم نظرت الى نوفريت وصاحت بها قائلة :
— أنت ايتها الشيطانة !. أيتها الأفعى !. أيتها الشريرة !. انتظري فسترين ما نفعله بك .
ثم لطمتها على وجهها بكل قوتها فسارعت رنزنب وأمسكت بذراعها حتى لا تكرر اللطمة قائلة لها :
— لا يصح ان تفعلي ذلك يا كيت !
— من ذا الذي يمنعني ؟ دعيها تحذر . انها واحدة بين جماعة !

فوقفت نوفريت ساكتة ، وكان أثر اللطمة باديا على خدهـا أحمر قانيا ، فإن كيت كان بمعصمها سوار ، فجرح الجلد وسال الدم على وجه نوفريت .

على ان التعبير الذي بدا على وجه نوفريت هو الذي حير رنزنب بل أخافها فانها لم تبد أي كدر بل على العكس كان لعينيها بريق الانتصار وافتر ثغرها عن ابتسامة ماكرة وقالت لكيت :
— أشكرك يا كيت !
ثم دخلت الدار !

* * *

جاءت حنت ملبية نداء نوفريت ، وما ان رأت الجرح الذي بوجهها حتى اخذت تبدي عجبها .. ولكن نوفريت قاطعتها قائلة :

– نادي كامني ، وقولي له يحضر اقلامه وحبراً وورقاً من البردى ، فان عليه ان يكتب خطاباً الى السيد .

وكانت حنت لا تحيد ببصرها عن الجرح الذي بخد نوفريت قائلة :

– الى السيد ؟ نعم ، لقد فهمت !

ثم سألتها :

– من الذي فعل هذا ؟

فابتسمت نوفريت وقالت في هدوء :

– كيت !

– هذا شيء فظيع جداً ! نعم يجب ان يعلم السيد .. لا بد من انباء الحوتب !

– انك تفكرين مثل تفكيري يا حنت ، وانا ايضاً ارى واجبـاً ان نخبره !

ثم اخرجت من طرف ثوبها حلية من الذهب المرصع بالجمشت (حجر كريم ازرق) ووضعتها في يد حنت قائلة لها :

– انا وانت نرعى صالح الحوتب باخلاص !

– هذا كثير يا سيدتي ، انك كثيرة السخاء ، ما ابدع هذه الحلية !

فابتسمت قائلة لها :

– نادي كامني ، وتعالي معه ، فإنك انت وهو ، ستشهدان بما حدث .

وبعد لحظة جاء كامني متردد الخطى ، متجهم الجبين ، فقـال له نوفريت بلهجة الآمر :

– اتذكر تعليمات الحوتب قبل سفره ؟

– نعم ...

– لقد حان وقت تنفيذها ! اجلس واكتب ما اقوله لك .

ولما بان عليه التردد قالت له بلهجة حازمة :

– ان ما ستكتبه هو مـــا رأيته بعينيك وسمعته بأذنيك ، وحنت ستؤيد ما اقوله ، ويجب ان يحاط ارسال الخطاب بالكتمان وان يرسل في اسرع وقت .

– اني لا احب ان ..

فقاطعته قائلة :

– ليست لي شكوى من رنزنب ، انها رقيقة ضعيفة حمقاء ، ولكنهـا لم تسيء الي أهذا يرضيك ؟

فاحمر وجه البرونزي وقال

– لقد كنت افكر .

لكنها قطعت كلامه مرة اخرى قائلة باللهجة الحازمة نفسها :

– هيا نفذ التعليمات واكتب ما امليه عليك ؟

فبقي هنيهة ينظر اليها غاضباً ، ثم ما لبث ان حنى رأسه ، وقال :

– سأكتب ما تشائين ، ولكني اعتقد .. اجل اعتقد انك ستندمين !

– اتتوعدني يا كامني .

– كلا ! ولكني احذرك !



مرت الأيام تباعاً ورنزنب تشعر كأنها تعيش في حلم ، ولم تعد تتقرب الى نوفريت ، بل صارت تخشاها وترى فيها أشياء لا تفهمها .

وكانت نوفريت بعد ذلك الحادث الذي لطمتها فيه كيت قد تغيرت كثيراً فبان عليها رضا وسرور لم تدرك رنزنب كنههما .. وصارت تحسب ان ما

ظننته من بؤسها وشقائها كان وهماً من الأوهام ، فانها تبدو على العكس راضية عن نفسها وحياتها .

وفي الوقت نفسه لم تعد تمنى بأن تبذر بـذور الشقاق بين افراد الأسرة كما كان شأنها عقب سفر امحوتب ، فاتحد افراد الأسرة ضدها .

وفي الوقت نفسه وقعت حوادث طفيفة غير مألوفة ، فقـد احرق ثوب كتاني لنوفريت بمكواة حامية ، وصبت مادة ملونة على ثوب آخر ، ووجدت عقرب ذات ليلة في فراشها ، وصار الطعام الذي يقدم لها ، اما زائد الملح ، او ليس به ملح اصلاً ، ووضع فأر ميت يوماً في الخبز الذي تأكله !

كان هناك اضطهاد لنوفريت لا هوادة فيه ، ولكنه لم يكن ظـــاهراً مكشوفاً ، بل كان خفياً تقوم به نسوة الدار حريصات على الا تظهر تبعته .

وأخيراً نادت ايزا يوماً ساتيبي وكيت وزنزنب ، وقد سبقتهن اليها حنة واخذت تهز رأسها وتمسح يديها ، ثم قالت لهن ايزا بسخريتها المعهودة :

– اذن هنا حفيداتي الماهرات ، ماذا تفعلن جميعاً ؟ وما الذي اسمعه عن حرق ثوب نوفريت وافساد طعامها ؟

فابتسمت ساتيبي وكيت وقالت اولاهما :

– هل شكت نوفريت اليك ؟

– كلا ، ان نوفريت لم تشك الي ، وهذا ما يقلقني .

– ولكنه لا يقلقني انا .

– هذا لأنك حمقاء .. ان نوفريت لها وحدها ذكاء اثنتين منكن على الأقل !

– سوف نرى ..

ولما سألتها ايزا عما تقصده ، اجابت قائلة :

– انك امرأة عجوز يا ايزا ، ولا اقول هذا لأن احترامي لك قد نقص ولكن الأمور صارت لا تهمك بالقدر الذي تهمنا نحن اللائي لنـا ازواج

واطفال . لقد قررنا ان نتولى المسألة بأنفسنا ، مع تلك المرأة التي لا نحبها، ولا نقبلها بيننا !

– هـذه كلمات بديعة ، ولكن الفتيات الرقيقات في المطحن يمكنهن ايضاً أن يحسن الكلام مثلك !

– صدقت ، انك تتكلمين يا ايزا بعقل وحكمة

– تعالي يا حنة . ماذا تقول نوفريت حيال كل ذلك ؟ لا بد انك تعرفين فإنك معها دائماً .

– اني الازمها طبقاً لأمر امحوتب ، وانا اكره ذلك طبعاً ، ولكن ينبغي لي أن افعل ما امرني به السيد ، ولعلك لا تظنين ..

فقاطعتها ايزا قائلة :

– اننا نعرفك حق المعرفة يا حنة . انت دائماً مخلصة لنـا ولا تلقين جزاء هذا الاخلاص ، والان ما تقول نوفريت ازاء كل ما حدث ؟ هذا ما اسألك عنه .

– انها لا تقول شيئاً وانما تبتسم !

وهنا قالت ايزا بحزم :

– انكن جميعاً حمقاوات ، ان نوفريت هي صاحبة القوة لا انتن ، لأن كل ما تفعلنه انما يؤدي بكن الى الوقوع في قبضة يدها ، ويمكنني ان اقسم ان ما تفعلنه معها يسرها بدل ان يغضبها !

فصاحت ساتيبي قائلة :

– هذا هراء ، ان نوفريت واحدة بين جماعة واية قوة لها ؟

فقالت ايزا :

– ان لها قوة شابة صغيرة حسناء اقترنت برجل شيخ، اني اعرف ما اقوله وحنة ايضاً تعرف .

فقالت حنة :

- إن السيد شغوف بها .. ولا بد .

فنظرت ايزا اليها وردت :

- إذهبي إلى المطبخ واحضري لي بلحاً وبعض النبيذ السوري ، وقليلاً من عسل النحل أيضاً .

ولما ذهبت حنت قالت ايزا

- إن هناك شيئاً يتخمر .. وإني لأشم رائحته .. وأنت يا ساتيبي زعيمة هذه الحركة . فاحذري كل الحذر ، إنك تحسبين نفسك ماهرة فاحذري ان تقعي في يد نوفريت !

ثم استندت إلى الوراء وأغمضت عينيها وقالت :

- لقد حذرتكن ، كما يقضي بذلك واجبي ، ولكن أن تنصرفن الآن ..

ولما خرجت ساتيبي قاصدة الى شاطىء البحيرة قالت لرفيقتها :

- كيف نكون في قبضة يد نوفريت ؟!. إن ايزا قد بدأت تخرف من الكبر .. إننا نحن اللائي نمسك بنوفريت في أيدينا . إننا لن نفعل معها شيئاً يمكن أن يؤخذ علينا .. وأعتقد انها سوف تندم على مجيئها إلى هذه الدار !

فصاحت بها رنزنب :

- ما أقساك يا ساتيبي !

فنظرت ساتيبي اليها وردت :

- أتدعين انك تحبينها يا رنزنب ؟

- كلا ! لا أحبها . لكني أراك محبة للانتقام !

- إني أفكر في أطفالي ، وفي يحموز .. إني لست إمرأة وديعة ، او امرأة تتحمل الإهانة .. ثم إني طموح .. إنني مستعدة لأن أضرب عنق تلك المرأة بسرور بالغ .. غير ان الأمر ليس بهذه السهولة ، ويا

للأسف .. فإنه لا ينبغي لنا أن نثير غضب أحوتب .. ولكني أعتقد انه يمكن تدبير شيء .

* * *

جلس يحموز وسوبك وابي ينظرون إلى حوري وهو يقرأ عليهم الخطاب الوارد من أبيهم ، وكأن على رؤوسهم الطير ، او كأنهم سمكة والخطاب حربة استقرت في أحشائها .

وكان احوتب يقول في خطابه :

- ألم أقل ليحموز إني أحمله تبعة كل أذى يصيب خدينتي ؟ إنكم طالما بقيتم على قيد الحياة فأنا عدوكم وأنتم أعدائي .. ولن أعيش معكم تحت سقف منزل واحد ، ما دمتم لم تحترموا نوفريت .. إنك يا يحموز لم تعد ابني من لحمي ودمي وأنتما كذلك ايضاً يا سوبك ويا ابي . إن كل واحد منكم قد آذى خليلتي هذا ما شهد به كامني وحنت . سأطردكم جميعاً من منزلي . لقد علتكم حتى الآن ولكني لن أعولكم بعد اليوم .

وسكت حوري لحظة ثم واصل قراءة الخطاب ، فاذا فيه أيضاً :

- إن احوتب ، كاهن كا ، يوجه الحديث إلى حوري . أنت الذي كنت دائماً مخلصاً أميناً ، كيف أنت في حياتك وفي طمأنينتك وصحتك ؟ بلغ تحياتي الى أمي ايزا وانتبه الى أعمالي جيداً حتى أعود . وأعد لي وثيقة تشاركني بها نوفريت في جميع أملاكي بحسبانها زوجتي . ولن أشرك معي في أملاكي يحموز ولا سوبك ، كذلك لن أعولهما ، وإني أعلن براءتي منهما ما داما قد آذيا خدينتي . إحتفظ بكل شيء حتى أعود يا حوري . ما أفظع ان تؤذي أسرة الرجل خدينته في غيابه . أما ابي فحذره فانه إذا أساء الى نوفريت أية إساءة فانه هو أيضاً سيطرد من البيت .

وساد الجميع صمت رهيب ، ثم قال سوبك والشرر يتطاير من عينيه :

– كيف حدث ذلك ؟ وما الذي نما إلى أبي ؟ ومن الذي بعث اليه بأنباء كاذبة ؟ إن أبي لن يستطيع أن يحرمنا حقنا في الميراث هكذا ويمنح خليلته كل أملاكه !

فقال يحموز :

– إن ذلك سوف يثير كلام الناس ، ولن يروا فيه عدلاً وانصافاً ، ولكنه أمر في إمكان أحوتب من الناحية القانونية .

فقال سوبك :

– لقد سحرته تلك الأفعى الرقطاء نوفريت !

وتمتم يحموز في ذهول يقول :

– إن هذا أمر لا يصدق ! ولا يمكن أن يكون صحيحاً !

وصاح إيبي قائلاً :

– إن أبانا قد جن ولا شك .. إنه ينقلب علي أنا أيضاً من أجل تلك المرأة !.

فقال لهم حوري بتؤدة :

– إن أحوتب سيعود قريباً ، وقد قال ذلك في خطابه ، وعندئذ تكون صورة غضبه قد هدأت ، ولعله لا يعني ما كتبه تماماً .

وعندئذ سمعت ضحكة سخرية ، ونظر الشبان الأربعة فرأوا ساتيبي تنظر اليهم وتستمع عند الباب الموصل إلى جناح النساء وقالت لهم ساخرة :

– إذن هذا ما يجب علينا أن نفعله يا حوري البارع ؟ ننتظر لنرى !

فقال لها يحموز :

– وماذا يمكننا غير ذلك ؟

فصاحت ساتيبي قائلة :

– ألا يمكننا غير الانتظار ؟ أيجري في عروقكم جميعاً لبن بدلاً من الدم

إني أعرف يحموز فهو ليس برجل ، ولكن أنت يا سوبك .. أليس لديك علاج لهذا الشر المستطير ؟ إن غرس سكين في قلب الأفعى يجعلنا بنجوة من كل سوء تنزله بنا .

فقال يحموز :

– إن أبي لن يغفر لنا ذلك أبداً !

– أنت تقول هذا ، ولكن ثق بأن خدينة ميتة ليست كخدينة حية ، ومتى ماتت عاد قلب أحوتب ملكاً لأبنائه وأحفاده ، ثم انى له أن يعرف كيف ماتت ؟ يمكننا أن نزعم ان عقرباً لدغتها ، إننا كلنا يد واحدة في هذه المسألة ، ألسنا كذلك ؟

فرد يحموز قائلاً :

– إن أبي سيعلم الحقيقة ، وحتماً لن تتوانى عن إخباره بها .

فضحكت ساتيبي ضحكة هسترية قائلة :

– يا لك من رجل بعيد النظر متريث يا يحموز ! يا لك من رجل حذر ! انك أنت الذي ينبغي لك أن تتولى تربية الأطفال وتؤدي عمل النساء في مؤخرة البيت ! لقد تزوجت رجلاً ليس برجل ! وأنت يا سوبك ، أين تفاخرك بالشجاعة والعزيمة ؟ إني أقسم برع ، انني اكثر رجولة منكما كليكما !

وخرجت غاضبة لا تلوي على شيء ، وكانت كيت واقفة خلفها فتقدمت وقالت :

– إن ما تقوله ساتيبي عين الحق .. إنها أكثر رجولة من أي واحد منكم .. أنتم يا يحموز وسوبك وايبي . أتقعدون هنا ولا تفعلون شيئاً ؟ وماذا سيكون مآل أطفالنا يا سوبك ؟ إنهم سيطردون من البيت ليموتوا جوعاً . حسناً اذا كنتم لن تفعلوا شيئاً فسأفعل أنا ، ما دمتم جميعاً ليس فيكم رجل !

ولما ذهبت هي الأخرى وقف سوبك وقال :

– أقسم بالأرباب التسعة : إن كيت لعلى صواب ! ان هناك عملا لا يؤديه إلا رجل ، ونحن نجلس ها هنا ونهز رؤوسنا أسفاً ولا نفعل شيئاً ؟

ومضى خارجاً فناداه حوري قائلا :

– سوبك .. سوبك . الى أين تذهب ؟ ماذا أنت فاعل ؟

فصاح سوبك قائلا :

– سأفعل .. سأفعل شيئاً ما .. هذا واضح والذي سأفعله سيبعث في نفسي سروراً !

* * *

خرجت رنزنب الى الشرفة ووقفت لحظة تحجب عينيها عن أشعة الشمس وكانت تحس بخوف لا تدري كنهه ، وتقول لنفسها : يجب أن أحذر نوفريت من الضروري أن أحذرها !

وكانت تسمع خلفها ، في داخل البيت ، أصوات رجال ، فقد كان حوري ويحموز يتكلمان هناك معاً بينما صوت ايبي يرتفع قائلا :

– ان ساتيبي وكيت على حق ، ليس في هذه الأسرة رجال ، ولكني أنا رجل ! انني أشعر بالرجولة في قلبي ، وان لم تكن في سني ، لقد سخرت مني نوفريت وضحكت علي وعاملتني كطفل . وسأريها اني لست طفلا ، ولا أخاف غضب أبي ، فإني أعرفه ، انه مسحور ، لقد سحرته هذه المرأة ، واذا ماتت فسوف يتجه بمحبته الي كذي قبل .. اني أحب أولاده اليه .. انكم جميعاً تعاملونني وكأني طفل .. ولكن سترون ، أجل سترون ؟

ثم اندفع خارجاً من المنزل ، فاصطدم برنزنب حتى كاد يوقعها على الأرض

فأمسكت بكمه قائلة :

– الى أين يا ايبي ؟

– سأبحث عن نوفريت ، وسنرى هل تستطيع إن تضحك مني !

– انتظر قليلا .. يجب أن تهدأ .. لا ينبغي لأحد منا أن يقدم على عمل طائش !

فضحك الفتى وقال بازدراء :

– طائش ؟ انك مثل يحموز : دائماً متبصرة حذرة ؟ وعندكما انه لا يصح الاسراع في أي شيء ؟ ان يحموز ليس الا امرأة عجوز ، وسوبك كالطبل الأجوف كلاماً وتفاخراً . دعيني أخرج يا اختي ..

ثم جذب كمه من يد اخته ومضى يصيح قائلا :

– أين نوفريت ؟ اين هي ؟

* * *

وكانت حنت قد خرجت من داخل المنزل فتمتمت قائلة :

– هذا شر ؟ ماذا يصير اليه أمرنا كلنا ؟

فسألها ايبي :

– أين نوفريت يا حنت؟

وهنا تدخلت رنزنب قائلة لها :

– حذار يا حنت ، لا تنبئيه بمكانها ؟

ولكن حنت كانت قد بدأت تجيبه قائلة :

– لقد خرجت الى الطريق الخلفي قاصدة حقول الكتان ؟

ثم اندفع ايبي الى داخل المنزل ، بينما قالت رنزنب لحنت مؤنبة :

– ما كان ينبغي أن تخبريه بمكانها

- انك لا تثقين بجنث العجوز ليست لك أية ثقة بي ، ولكن جنث العجوز المسكينة تعرف ما هي فاعلة ، ان الفتى يحتاج الى فترة من الوقت لتهدأ ثورة غضبه ، انه لن يجد نوفريت في حقول الكتان . ان نوفريت هنا في الايوان مع كامني .

ثم أشارت برأسها الى طرف فناء الدار ، وكررت كلمتها الأخيرة : « مع كامني .. »

فمضت في طريقها الى حيث كانت نوفريت واقفة مع كامني ، وقالت لها لاهثة :

- نوفريت .. لقد جئت لأحذرك ، يجب ان تأخذي حذرك .

فنظرت اليها نوفريت نظرة تدل على اللهو وعدم الاكتراث وقالت :

- إذن فالكلاب تنبح ؟
- انهم في غضب شديد .. انهم سينزلون بك اذى !

فهزت نوفريت رأسها وقالت :

- لا يستطيع أحد أن يؤذيني ، واذا فعلوا فسيعلم ابوك وينتقم منهم ، انهم ليعرفون ذلك حق المعرفة .

ثم ضحكت قائلة :

- ما كان احمقهم باهاناتهم الصغيرة واضطهادهم السخيف ؟ انهم كانوا يلعبون اللعبة التي رتبتها أنا لهم

فقالت رنزنب بدهشة :

- اذن .. أنت التي دبرت كل ذلك ، بينما كنت أنا أرثي لك واحسب اننا قساة القلوب ؟ اني لست آسفة الآن . بل أعتقد انك شريرة يا نوفريت انك حين تأتين لتنكري الذنوب الاثنين والاربعين في ساعة الحساب ، لن تقدري ان تقولي : « لم أفعل ذلك » ، ولن تقدري أيضا ان تقولي : « اني لم أكن ذات طمع » . وعندئذ يرسب قلبك في الميزان حيال ريشة الصدق !

فقالت نوفريت عابسة :

- لقد تواتك التقوى بغتة ، ولكني لم أوذك أنت يا رنزنب ، ولم أفعل شيئا ضدك ، سلي كامني عن ذلك ..

ثم تركتها ومشت صوب الشرق فخرجت حيث لتقابلها ودخلتا معا الى جناح النساء في الدار ..

وهنا التفتت رنزنب الى كامني قائلة :

- اذن أنت الذي ساعدها على أن تفعل ذلك بنا يا كامني ؟

فقال لها كامني باهتمام :

- هل أنت متكدرة مني يا رنزنب ؟ ولكن ماذا كان يمكنني أن أفعل ؟ قبل أن يسافر أبوك كلفني ان أكتب اليه ما تمليه نوفريت علي في أي وقت تشاء . قولي انك لا تلومينني يا رنزنب ، وماذا كان يمكنني عمله ؟

- اني لا الومك ، فقد كان عليك ان تنفذ اوامر ابي .

- على اني لم اكن مرتاحا لما فعلت .. وثقي يا سيدتي انه لم يكن في الخطاب الذي كتبته اية كلمة ضدك .

- هذا لا يهمني ؟

لكنه يهمني انا ، ولو ان نوفريت ارادت املاء شيء ضدك لما كتبته ، صدقيني يا رنزنب .

ثم تابع كامني ملحا :

- اني لم اكتب الا الحق .. ولم يحتو الخطاب اكاذيب مطلقا .. واقسم لك ..

- اني واثقة من ان الخطاب لم يحتو على اكاذيب ، فان نوفريت امكر من ان تكذب ، واذن . فقد كانت ايزا العجوز على صواب ، فان الاضطهاد الذي لقيته نوفريت من ساتيبي وكيت هو الهدف الذي كانت تسعى

اليه فلا عجب ان كانت تقابل ذلك الاضطهاد بابتسامتها الماكرة .. انها شريرة ..

– اجل انها تحب الشر؟

فالتفتت اليه وسألته باهتمام :

– هل كنت تعرفها قبل ان تأتي الينا ؟ الم تعرفها في ممفيس ؟

فاحمر وجهه وبان عليه الارتباك وقال :

– لم اكن اعرفها معرفة وثيقة ، وانما كنت اسمع عنها . وكان الناس يقولون انها فتاة متكبرة طموح ، وانها قاسية لا تغفر قط ؟

– اني لا اصدق ما جاء بخطاب ابي ، انه لا يمكن ان ينفذ وعيده ، اجل انه كان في سورة الغضب ، ولكنه لا يقدر ان يكون ظالما الى هذا الحد ، ولا شك في انه سيصفح حين يعود .

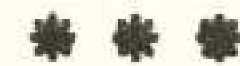
– حين يعود ستأخذ نوفريت على عاتقها الا يغير رأيه ، انها شديدة الدهاء قوية العزيمة ..

ثم واصل كلامه قائلا :

– لا تنسي انها جميلة ؟

– نعم .. انها جميلة ..

ثم نهضت وقد شعرت بضيق لا تعرف سببه ، لدى سماعها كامني يذكر جمال نوفريت .



قضت رنزنب أصيل اليوم في ملاعبة الاطفال ، وقد خفف ذلك من الالم النفساني الذي تحسه .

ثم نهضت من مكانها قبيل الغروب ، واخذت تسوي شعرها وترتب ثيابها

وهي في دهشة من أمر ساتيبي وكيت لانها لم تخرجا من الدار كعادتهما حتى ذلك الوقت .

وشعرت رنزنب بفراغ كبير واخذت تسأل نفسها .

– أين خرج الجميع ؟

ربما كان حوري قد خرج إلى المقبرة ، وربما كان يحموز معه ، أو في الحقول ، ولعل سوبك وايبي عند الماشية أو في مخازن القمح ، ولكن أين ساتيبي وكيت ؟ وأين نوفريت؟

وكان العطر الذي تستعمله نوفريت يملأ أريجه غرفتها ، وكانت العطور والأدهنة والثياب وأدوات الزينة ، تتحدث كلها عن صاحبتها نوفريت ، ولكن أين هي ؟

ومضت رنزنب إلى المدخل الخلفي الدار فقابلت حنث قادمة . فسألتها :

– أين خرج الجميع يا حنث ؟ ليس بالدار غير جدتي !

– انى لي أن أعرف يا سيدتي ؟ لقد كنت أشتغل – أساعد في النسج ، وأقوم بألف عمل ، وليس عندي متسع من الوقت للنزهة والرياضة .

فأدركت رنزنب من حديثها ان احداً قد خرج للرياضة ، ربما تبعت ساتيبي يحموز إلى المقبرة لتزيده لوماً وتقريعاً . ولكن أين كيت ؟ إنها لم تعتد الابتعاد عن الأطفال زمناً طويلا .

وعاد خوفها الدفين يلح عليها في السؤال :

– أين نوفريت ؟

وكأنما قرأت حنث ما يدور بخلدها فقالت لها :

– أما نوفريت فقد ذهبت منذ مدة طويلة إلى المقبرة ، لا بأس ، ان حوري ند لها ، فإنه ذكي مثلها .

ثم اقتربت من رنزنب وقالت لها :

— بودي أن تعلمين مقدار أسفي لكل ما حدث، لقد جاءت نوفريت إلي في ذلك اليوم والدم يجري على خدها من اثر لطمة كبت لها ، ثم امرت كامني ان يكتب خطاباً للسيد ، وارغمتني على أن اشهد بـأني رأيت الأمر بعيني ، وبالطبع لم اقدر ان اقول لها إني لم أر شيئاً ! آه ، إنها مـاكرة ، وأنا طول الوقت افكر في المرحومة امك العزيزة .

فتركتهـا رنزنب ومشت تحت اشعة الشمس الذهبية ، وكانت تتراءى لها ظلال عميقة على الصخور ، والعالم كله يبدو عجيباً في تلك الساعة قبيل الغروب .

* * *

أسرعت رنزنب في خطاهـا حين أخذت طريقهـا إلى الدرب الصخري الصاعد الى المقبرة ، وقد اعتزمت ان تذهب اليها لتلقى هناك حوري . فقد اعتادت في طفولتها أن تقصد اليه كلما انكسرت دميتها ، وكلمـا شعرت بالحيرة او الخوف ، إن حوري مثل الصخر نفسه ، ثابت لا يتحرك ولا يتغير .

وزادت خطاها سرعة حتى لكأنها تجري ، وفجأة رأت ساتيبي قـادمة اليها ، وهي تترنح وتميل من جانب بالطريق إلى آخر وتتعثر كأنها لا ترى ! لما رأت ساتيبي رنزنب امامها وقفت بغتة ودقت صدرها دهشة ، فوقفت هذه حتى إذا اقتربت منها ساتيبي ، ورأت وجهها قالت لها

— ماذا بك يا ساتيبي ؟ هل أنت مريضة ؟

فأجابتها بصوت أجش وعينين زائغتين :

— كلا .. كلا !

— ولكنك تبدين مريضة ، بل يبدو عليك الخوف ماذا حدث ؟

— وما الذي حدث ؟ لا شيء ..

— أين كنت إذن ؟

— ذهبت إلى المقبرة لأقابل بحموز ، ولكنه لم يكن هناك .. لم يكن أي أحد هناك .

فظلت رنزنب تمعن فيها النظر ، وقد خيل اليها انها ليست ساتيبي التي تعهدها ، بل اصبحت إمرأة أخرى وقد فقدت كل ما كان لها من عزيمة واعتداد بالنفس .

وما لبثت هذه ان قالت لها

— تعالي يا رنزنب ، تعالي إلى المنزل !

ووضعت يدها المرتعشة على كتف رنزنب ، وراحت تحثها على العودة إلى المنزل ، فأحست رنزنب رجفة من لمستها وقالت لها :

— كلا . إني ذاهبة الى المقبرة .

— ان المقبرة ليس فيها احد كما ذكرت لك .

— ولكني احب ان انظر الى النهر وان اجلس هناك .

— ولكن المساء اوشك ان يحل ، لقد تأخر بك الوقت .

ثم امسكت ذراع رنزنب بقوة لتحول دون ذهابهـا ، ولكن رنزنب جذبت ذراعها قائلة :

— دعيني اذهب .

— كلا بل ترجعين معي الى المنزل .

ولكن رنزنب كانت قد حررت نفسها من قبضتها وبدأت تسلك طريقها صوب المقبرة .

وقد دلتها غريزتها على ان هناك شيئاً ما .. واسرعت في مشيتهـا حتى صارت كأنها تعدو ، ثم رأت كومة معتمة في ظل صخرة فأسرعت حتى وصلت اليها .

ولم يدهشها ان رأت نوفريت راقدت هناك وقد خمدت حركتها وصارت جثة بلا روح .

ولعلها توقعت ذلك من قبل .

ثم انحنت ولمست خد نوفريت فإذا هو بارد يابس ..

فأخـذت تنظر اليها، ولم تشعر بوصول ساتيبي الا عندما سمعتها تهتف بها من خلفها قائلة :

– لا بد انها وقعت .. انها كانت تسلك الدرب الصخري فوقعت .

ففكرت رنزنب وقالت لنفسها :

– أجل ، هذا ما حدث ، لا شك انها سقطت من الدرب المرتفع وان جسمها ارتطم بالصخور من سقطتها .

ثم قالت ساتيبي :

– ربما كانت قد رأت افعى فارتاعت ، إن بذلك الدرب احياناً افاعي تنام في شعاع الشمس .

ولم ترد رنزنب ، ومضت تحدث نفسها قائلة :

– اجل ، افعى .. سوبك والأفعى .. افعى مقصومة الظهر راقدة في وهج الشمس .

ثم شعرت بالطمأنينة اذ سمعت صوت حوري يقول :

– ماذا حدث ؟

فالتفتت اليه مطمئنة ، ورأت انه قد جاء مع يحموز .

وكانت ساتيبي تشرح باهتمام كيف ان نوفريت لا بد قد سقطت من الدرب الذي فوق !

فقال يحموز

– لا بد انها قد ذهبت الى المقبرة لتلقاك ، ولكنني أنا وحوري كنا قد ذهبنا لنرى قنوات الري ، وقد مكثنا هناك نحو ساعة ، ولما عدنا وجدنا كا

واقفين هنا

فقالت رنزنب بصوت ادهشها هي نفسها :

– اين سوبك؟

وشعرت – دون ان ترى – ان حوري قد ادار وجهه عند هذا السؤال .

اما يحموز فأجاب بحيرة ظاهرة :

– سوبك ؟ اني لم أره بعد ظهر اليوم ، منذ غادر المنزل غاضباً .

وكان حوري ينظر الى رنزنب ، ولما نظرت اليه تفادى بصرها ، ونظر الى جثة نوفريت ، فأدركت ما يجول بخاطره .

ثم سمعته يتمتم :

– سوبك ؟

فسمعت نفسها تقول :

– كلا . كلا !

وعادت ساتيبي تؤكد قولها :

– لقد سقطت نوفريت من الدرب ، ان الدرب ضيق جداً في هذا المكان وخطر جداً أيضاً ؟

وساءلت رنزنب نفسها :

– خطر ؟ الم يقل لي يحموز يوماً : ان سوبك هاجم يحموز حين كانا طفلين ، فجاءت أمهم وقالت لسوبك : لا ينبغي ان تفعل ذلك يا سوبك انه خطر .. ان سوبك يميل الى القتل .. ولقد قال : ان ما سأفعله سيملأ قلبي سروراً ..

ان سوبك قد قتل افعى .. وتخيلته رنزنب يصادف نوفريت في الدرب الضيق .

ثم سمعت نفسها تتمتم قائلة :

– نحن لا نعرف ، نحن لا نعرف ..

وما لبثت ان ارتاحت وأحست كأن عبئاً ثقيلاً قد ازيح من فوق صدرها ، اذ سمعت حوري يؤكد بصوته الرزين ما قالته ساتيبي ، ويقول مثلها :

– لا بد انها سقطت من الدرب .

فتقابل نظرها مع نظره ، وقالت لنفسها :

– انا وهو نعرف الحقيقة .

ثم سمعت نفسها قائلة :

– لا بد انها سقطت من الدرب ؟

ثم قال يحموز بصوته الرقيق وكأنه رجع الصدى :

– لا بد انها سقطت من الدرب ..

– ٦ –

جلس أحوتب يحدث ايزا قائلاً :

– إنهم جميعاً يخبرون بما حدث كأنهم واحد !

فقالت ايزا :

– هذا على الأقل شيء مريح .

فبدت الدهشة في وجهه وقال :

– مريح ؟ . ماذا تقصدين ؟ أهم صادقون في روايتهم ؟ . أريد ان أتثبت من ذلك !

– إنك لست الإلاهة (معت) ولا (أنوبيس) ، التي تزن القلوب في الميزان !

فأطرق هنيهة مفكراً ، ثم قال :

– أخشى أن يكون لما أعلنته من اعتزام معاقبة أسرتي الناكرة للجميل ، صلة بوفاة نوفريت .

– لا بد ان تهديدك إياهم في الخطاب قد أثارهم جميعاً ، وكانت أصواتهم وهم يتصايحون في غرفة الاستقبال ، تصل واضحة الى سمعي في غرفتي ! لكن .. أكنت تعتزم طردهم حقاً ؟

فتململ احوتب في مقعده وقال :

– لقد كتبت الخطاب وأنا في فورة غضب ، وكانت أسرتي تحتاج الى درس القنها إياه !

– ولعلك لم تكن تقصد أكثر من ان تلقنهم ذلك الدرس .. أليس كذلك ؟

فصعد أحوتب زفرة حرى وقال :

– يا أمي العزيزة .. ما فائدة ذلك الآن ؟

– إذن ، لم تكن تعني ما ذكرت في الخطاب ؟. ولم يكن هذا إلا مظهراً لتعجلك ونزقك كالمعتاد ؟

فكظم أحوتب غيظه بصعوبة وقال :

– إن المجال لا يتسع لبحث هذه التفصيلات .. ولا يعنيني الآن الا بحث مسألة وفاة نوفريت فإذا ظهر لي ان أحـداً من أفراد أسرتي بلغ به الجحود والنزق الى حد ان يقتل فتاة فاني .

فقاطعته ايزا قائلة :

– اذن .. من حسن الحظ ، أنهم جميعاً ، قـد اتفقت أقوالهم على أن وفاتها كانت طبيعية .. وعليك ، الآن ، أن تعد الحادث منتهياً .. لقد كان يحسن بك أن تعمل بمشورتي ، وتأخذ الفتاة معك في سفرك الى الشمال !.

فازداد تقطيب وجهه وقال :

– هل معنى ذاك انك تعتقدين ..

فقاطعته قائلة بلهجة التأكيد :

– اني أعتقـد صحة ما يقـال لي ، الا اذا تعارض مع ما رأيتـه بعيني ، أو سمعتـه بأذني .. ولا بـد انك سألت حنث في القضية ، فماذا كان جوابها ؟

– انها شديدة الحزن من أجلي ! وهي لا بد ذات فؤاد رحيم

– نعم ، ان حنث مخلصة رحيمة ، غير ان لسانها سليط ، واذا كان حزنها من أجلك فقط فاني أعتقد ان الحادث قد انتهى ، وهناك مسائل اخرى عديدة تستحق الالتفات .

فاستعاد مظهر الجد والاهتمام وقال :

– صحيح .. ان يحموز ينتظرني الآن في قاعة الاستقبال ، ليعرض علي مسائل شتى تتطلب مني الاهتمام العاجل . وهناك قرارات عديدة تنتظر الاجازة مني ، وكما تقولين ، لا ينبغي للحزن الفردي ان يحول دون الأعمال الهامة في الحياة .

ثم غادر الحجرة مسرعاً ، فابتسمت ايزا ساخرة ثم عاد وجهها جامداً رزيناً كما كان

وكان يحموز ينتظر أباه ومعه كامني ، فلما وافاهما احوتب ، ابتدره يحموز قائلاً :

– ان حوري مشغول بالإشراف على عمل المحنطين والحدادين الذين يعدون المعدات لجنازة نوفريت .

وكانت عودة احوتب قد استغرقت بضعة أسابيع ، بعد ان نعيت اليه خليلته .. فأخذ يحموز خلال ذلك في اعداد معدات الجنـــازة ، فنقع جثمانها مدة طويلة في ماء ملح ، حتى استعاد هيئته الطبيعية تقريباً ، ثم دهن بالزيت ومسح بالملح ولف في الأربطة ، ووضع في التابوت الخاص به ، انتظاراً لعودة أبيه .

ثم قال يحموز لأبيه :

– قد أعددنا للجنازة الغرفة الصغيرة القريبة من المقبرة

ومضى يذكر بالتفصيل ما أمر باتخاذه من تدابير .

وكانت تلك الغرفة قد أعدت ليكون فيها قبر احوتب نفسه ، فارتاحت نفسه لتصرف يحموز على هذا النحو وقال :

– قـد احسنت يا يحموز ، ويبـدو انك تصرفت بحكمة ، واحتفظت برباطة جأشك .

فاحمر وجه يحموز خجلا حيال هذا الثناء غير المرتقب ، وأطرق ساكتا ، بينما استطرد والده قائلا :

– ان ابي ومونتي من المحنطين الذين يغالون في أجورهم . فمثلا هـذه الأوعية الخاصة بحفظ الأحشاء تبدو لي باهظة الثمن ، والواقع انه لا حاجة لمثل هذا الإسراف ، ان ما يطلبونه من الأجر فادح جداً ، وهذا شر ما في هؤلاء المحنطين الذين استخدمتهم اسرة الحاكم ، فانه يحسبـون ان من حقهم المطالبة بأي أجر ، وكان خيراً لنا ان نستخدم محنطين آخرين أقل شهرة وأجراً .

فقال يحموز :

– كان علي في غيابك ان أبت في هذه الأمور ، وقد حرصت على ان تحاط خدينتك بكل تكريم ، اذ اني أعرف سمو مكانتها عندك .

فأومأ الأب برأسه موافقا ، وربت كتف ابنه قائلا :

– انه خطأ يحسب لك لا عليك ، ولا شك في انك بعيد النظر في مسائل المال ، وانك لم تنفق مـا أنفقت في هذا الشأن الا لإرضائي . وعلى أي حال فان الخليلة غير الزوجة ، كما تعلم ، وأرى ان نلغي التمائم الفادحة الثمن .. ولعل هنـاك أشياء أخرى يمكن الاقتصاد فيها ، اقرأ البيانات يا كامني .

فنشر كامني ورقة البردى أمامه ، وأخذ يقرأ ما فيها من بيانات .

* * *

جاءت كيت متباطئة من الدار الى البحـيرة ، حيث يلعب الأطفال مع

أمهاتهم ، ثم قالت ساتيبي :

– لقـد كنت على صـواب ، يا ساتيبي ، فـان خليلة حيـة ليست كخليلة ميتة .

ونظرت اليها ساتيبي نظرة حائرة ولم تجب ، وتدخلت رنزنب سائلة كيت عما عنته فعادت هذه تقول :

– ان الخليلة الحية لا يضن عليها بشيء ، سواء أكان ثيـاباً أم حلياً . بل ان ميراث امحوتب كاد يؤول الى خليلته وهي حية بـدلاً من اولاده وأحفاده . اما الآن ، وقد توفيت هذه الخليلة ، فان امحوتب مشغول بالاقتصاد في نفقات جنازتها . ولماذا يبذر المال ويضيعه على امرأة ميتة ؟ نعم ، فقد كانت ساتيبي على حق .

فتمتمت ساتيبي قائلة :

– وماذا قلته أنا ؟ فقد نسيته .

فأجابتها كيت :

– حسناً فعلت . وانا ايضاً قد نسيته وكذلك رنزنب

فنظرت رنزنب الى كيت دون ان تتكلم ، فقد بدا في صوتها شيء ينم عن الوعيد . وكانت رنزنب قد اعتادت ان تنظر اليها نظرتها الى امرأة غبيـة خاضعة جديرة بالاهمال . فعجبت الآن اذ الفتها تتحكم في ساتيبي بعد ان كانت هذه هي المتحكمة المعتدية عادة .

ثم قالت رنزنب تحدث نفسها :

– ان الناس لا يبدلون طباعهم بمثل هذه السهولة .. وانه لأمر يدعـو الى اشد العجب والحيرة ان تتغير طباع كيت وساتيبي في الاسابيع القليلة الاخيرة ، فما السبب يا ترى ؟

لا بد ان ساتيبي قد انهارت فجأة واعتراها تغير واضح ، فان صوتها لم يعد يرتفع بسلاطتها المعتادة ، وهي الآن تمشي بخطى مترددة لا تتفق مع ما كان لها

من اعتداد بالنفس، وقد كنت اظن ان ذلك التغير ناشيء من الصدمة التي تلقتها بوفاة توفريت، بل كان المتوقع منها ان تجهر بفرحها لوفاتها هكذا فجأة، قبل حينها

وقد أصبح يحموز بنجوة من لومها وتقريعها فاتخذ لنفسه مسلك الحزم.. وعلى أي حال فان هذا التغير الذي اعتراها جدير بالحمد، وان كان يوحي بقلق مبهم ولا اعرف له سببا.

وارتاعت رنزنب، اذ حانت منها التفاتة الى كيت، فاذا هي تحملق فيها عابسة، فتذكرت انها كانت تنتظر منها كلمة موافقة على شيء قالته. ثم سمعتها تقول مرة اخرى:

— ان رنزنب ايضا قد نسيته.

وقالت كيت بعد هنيهة:

— ان نساء هذه الدار يجب ان يكن يداً واحدة.

فنظرت اليها رنزنب وسألتها متحدية:

— لماذا؟

فردت كيت:

— لان مصالحهن واحدة.

وهزت رنزنب رأسها كالموافقة، وحدثت نفسها قائلة:

— كلا.. ان لي شخصيتي المستقلة.

ثم ردت بصوت عال:

— ان الامر ليس بهذه السهولة.

— ماذا؟ أتريدين اثارة مشاكل؟

— كلا.. لكن ماذا تعنين بكلمة مشاكل؟

— اعني ان كل ما قيل في ذلك اليوم بالقاعة الكبرى يجب ان يكون الآن في زوايا النسيان.

فضحكت رنزنب قائلة:

— أنت غبية يا كيت، إن الخدم والعبيد وجدتي وكل الناس قد سمعوا ما قيل يومئذ، فلماذا تدعي ان شيئاً لم يحدث مع انه حدث؟

فقالت ساتيبي:

— لقد كنا وقتئذ في سورة غضب، ولم نقصد ما قلناه، دعي الكلام في هذا الموضوع يا كيت.. وإذا كانت رنزنب تريد أن تثير مشاكل فدعيها وشأنها..

فردت رنزنب بكدر:

— لا أريد ان أثير مشاكل ولكن من الغباوة أن تدعي.

فقاطعتها كيت قائلة:

— ليس ذلك غباوة بل حكمة.. إن ابنتك تيتي، تستحق أن تراعيها!

— ابنتي.. ابنتي.. إنها في خير حال!

— نعم إنها بخير وكل شيء على ما يرام، ولكن من الضروري ان تعلمي بأن هذا لأن نوفريت ماتت.

وبقيت رنزنب ساكتة مفكرة في كل هذا وهي جالسة على شاطيء البحيرة وحدها بعد أن عادت ساتيبي والأطفال إلى الدار، وكانت الشمس قد مالت للمغيب حين لمحها حوري هناك وهو يعبر الفناء، فاتخذ طريقه اليها وجلس بجانبها وقال لها:

— لقد تأخر بك الوقت يا عزيزتي.. إن الشمس اوشكت أن تغرب، وينبغي لك أن تدخلي الدار.

وشعرت بالهدوء عند سماع صوته الرزين والتفتت اليه تسأله:

— امن الضروري على نساء الدار أن يكن يداً واحدة؟

فسألها بنوبته:

— من قال ذلك؟

– كيت ، وساقيبي ، و ..

ولم تتم ما ارادت قوله .

فقال حوري :

– أتريدين أن تستقلي بتفكيرك ؟

– تفكيري ؟ إني لا أدري كيف أفكر يا حوري ! فقد اضطرب كل شيء في ذهني ، إن الناس غامضون ، فكل انسان يختلف عما كنت أتخيله ، كنت أظن ساقيبي دائماً جريئة صادقة العزيمة محبة للسيطرة ، ولكنها الآن ضعيفة ذليلة بل خائفة ! إذن أيتها ساقيبي الحقيقية ؟ إن الناس لا يمكن أن يتغيروا هكذا بين يوم وليلة !

فقال لها في هدوء :

– نعم ، لا يمكن ان يتم هذا بين يوم وليلة ..

واستأنفت هي كلامها قائلة :

– إن كيت التي كانت دائماً وديعة خانعة ، وتدع كل إنسان يعنفها ، صارت الآن متحكمة في الجميع ، حتى سوبك نفسه صار يخشاها ، وقد اختلف يخموز هو الآخر ، عما كان عليه فهو الآن يصدر أوامره ولا ينتظر إلا أن يطاع !

فسألها حوري :

– ولماذا يحيرك هذا ..

– اني لا أفهمه ، وقد أشعر أحياناً بان حنث أيضاً مختلفة تماماً عما تبدو عليه .

وضحكت وكأنها تضحك من شيء سخيف ، ولكن حوري لم يشاركها في الضحك وبقي بادي الرزانة مستغرقاً في التفكير .

ثم قال لها

– إنك لم تكوني تفكرين في الناس كثيراً يا رنزنب ، ولو انك فكرت

لأدركت .

ثم توقف عن الكلام لحظة وقال لها :

– انك تعلمين ان لكل مقبرة باباً وهمياً ، والواقع ان الناس كذلك أيضاً ، فهم يخلقون لأنفسهم أبواباً وهمية ليخدعوا بها غيرهم ، فإذا شعر أحدهم في قرارة نفسه بالضعف وقلة الكفاية ، وضع أمامه باباً كاذباً من الكبرياء والادعاء والاعتداد بالنفس ، ولا يلبث قليلاً حتى يظن نفسه كما يظنه الناس كذلك . ولكن الباب الوهمي ليس سوى صخرة جرداء ، ومتى جاءت الحقيقة ولمست بيدها ذلك الباب استعاد المرء شخصيته الحقيقية ..

وعلى هذا بدت كيت أول الأمر وادعة خاضعة ، فلما نالت ما أرادته بذلك من الحصول على الزوج والأطفال والعيشة المطمئنة ، جاءت الحقيقة في هيئة خطر محدق يهدد بفقدها ما حصلت عليه بوداعتها وخضوعها وغباوتها ، وحينئذ تكشفت شخصيتها الكامنة ، وبدت قوية جريئة كما هي في الواقع !

فقالت ببراءة الطفولة :

– ولكني لا أحب ذلك يا حوري ، فإنه يخيفني ان أرى كل انسان مختلفاً عما حسبته ، وأعتقد اني لم أتغير ، ولن أتغير !

فابتسم حوري وقال لها :

– أأنت حقاً كذلك ؟ اذن .. لماذا جلست ها هنا كل هذه الساعات تجهدين ذهنك في التفكير ؟ هل رنزنب التي ذهبت مع خاني ، كانت تجلس وتفكر هكذا؟!

– كلا ! لم تكن ثمة حاجة لذلك ..

– أرأيت ؟ لقد قلتها أنت نفسك اذ أشرت إلى الحاجة ، إنك الآن لست تلك الطفلة السعيدة الخالية الذهن التي تقبل كل شيء على ظاهره ، كما كنت

تظهرين دائماً .. إنك لا تريدين أن تفني شخصيتك في شخصيات نساء الدار ، بل تريدين ان تفكري لنفسك مستقلة !

ففكرت قليلاً ثم قالت لحوري فجأة :

– حقاً . اني لأعجب من امر نوفريت .

ولما سألها عما دعاها إلى ذلك العجب قالت :

– لا أدري يا حوري لماذا لا أستطيع إبعاد صورة نوفريت من خاطري لقد كانت رديئة قاسية سعت في ايذائنا جميعاً ، وهي الان ميتة ، فلماذا لا أترك الأمر عند هذا الحد .

ثم مرت بيدها على جبينها كأنما تحاول معاودة البحث عن الأسباب ، وهزت رأسها أخيراً قائلة :

– يخيل إلي احياناً اني أعرف ما جرى لنوفريت ؟

– تعرفين ؟ ماذا تعنين بذلك ؟

– لا أقدر أن أوضح ، ولكن يحدث ذلك لي أحياناً ، فأشعر بأنها هنا بقربي ، بل اكاد أشعر بأني هي ، ويخيل الي اني أدري شعورها ، لقد كانت بائسة ، اجل يا حوري اني اعرف ذلك الان ، وان كنت لم أعرفه وقتئذ ، لقد ارادت أن تؤذينا جميعاً لأنها كانت تعسة ..

– لكنك لا تستطيعين ان تعرفي ذلك ..

– نعم ، لا يمكنني أن اعرفه ، ولكني اشعر به ، لقد رأيت في ملامحها مرة ذلك البؤس وتلك المرارة وذلك البغض السحيق ، ولكني لم أدرك هذه الحقيقة حينذاك . لا بد انها احبت احداً ثم سارت الأمور بما لم تكن تشتهي ، ولعل من أحبته مات أو ذهب بعيداً ، وتركها هكذا محبة للأذى ميالة لاحداث الجراح بالناس ، يمكنك أن تقول ما تشاء فاني موقنة اني على صواب ؟ لقد أصبحت خليلة لشيخ عجوز ، ولما جاءت معه إلى هنا أبغضناها جميعاً ، فرأت أن تجعلنا جميعاً تعساء مثلها . أجل هذه

هي الحقيقة ..

فنظر حوري اليها متعجباً وقال :

– إنك تتكلمين واثقة مما تقولينه ، ومع هذا لم تعرفي نوفريت تماماً .

– اني أشعر بأن نوفريت كانت كما ذكرت ، واحياناً احس انها جد قريبة مني

وسكت الاثنان قليلاً ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، فقال حوري بصوت هادىء :

– أتعتقدين ان نوفريت لم تلق منيتها قضاء وقدراً ، بل قذف بها من شاهق ؟

فشعرت باستياء اذا سمعت ما يدور بخلدها يقال أمامها فقالت :

– لا تقل ذلك !

فابتسم حوري وقال :

– ولكني أعتقد ان الأفضل لنا أن نقوله ، ما دام يدور في خلدك ، انك تعتقدين ذلك ، اليس كذلك ؟ وانت تحسبين ان سوبك هو الفاعل ؟

ففكرت قليلاً وقالت :

– ومن غيره كان يفعل ذلك ؟ ألا تذكر يوم قتل الأفعى ؟ الا تذكر ما قاله يوم ماتت نوفريت ، وهو خارج من القاعة الكبرى ..

– أجل اني أذكر ما قاله ، ولكن ليس الرجل القوال بالفعال دائماً !

– ولكن الا تعتقد ان نوفريت ماتت مقتولة ؟

– اجل ، اعتقد ذلك ، ولكنه على اي حال رأي من الآراء وليس بيدي دليل ، وأحسب انه لن يوجد دليل ، ولهذا أغريت أحوثب بأن يقبل فكرة موتها قضاء وقدراً ، ان أحداً من الناس قد دفع نوفريت ولكننا لن نعلم أبداً من الذي دفعها؟

– اتظن انه لم يكن سوبك ؟

- لا أظن انه هو ، ولكن كما قلت لك ، لن نعرف من هو ويحسن بنا الا نفكر في الأمر .

وعادت فسألته :

- ولكن اذا لم يكن سوبك هو الذى دفعها ، فمن تظنه فعل ذلك ؟

فهز حورى رأسه وقال :

- ان عندى فكرة ، وقد تكون خاطئة ، ولذا يحسن الا اقول شيئاً ؟

- كيف ؟ الا يجدر ان نعرف الحقيقة ابداً ؟

- ربما . ربما كان الأفضل لنا الا نعلم ..

فأحست رنزنب رجفة في جسمها وقالت :

- ولكن .. في هذه الحالة .. اني خائفة يا حورى ؟

* * *

تمت المراسم الأخيرة لدفن نوفريت فأمسك مونتو أحد رهبان معبد هاتور مكنسة وأخذ يكنس بها أرض المقبرة وهو ينشد بعض الاناشيد الخاصة ليمحو آثار اقدام الأرواح الشريرة قبل أن يغلق الباب الى الأبد .

ثم ختم باب المقبرة ، ووضعت مخلفات التحنيط من آنية النطرون والملح والخرق ، وكل ما مس الجسم .. في غرفة صغيرة بمجاورة ختم عليها كذلك

وتنفس المحوتب الصعداء ، لقد تم كل شيء كما ينبغي ، ودفنت نوفريت بالمراسم اللائقة ، وان كلفه هذا نفقات كثيرة لم تكن هناك حاجة اليها ، وبعد أن تبادل عبارات المجاملة مع الكهنة الذين استعادوا سمتهم الأرضية بعد ان انتهت مهمتهم المقدسة ، هبط الجميع الى الدار حيث

قدمت المرطبات ، ثم أخذ يتحدث مع كبير الكهنة في شأن التطورات السياسية الأخيرة .

كانت طيبة في تقدم مطرد لتصير مدينة قوية ، ولم يكن بعيداً ان تتحد مصر مرة أخرى في ظل حكم ملك واحد ، وليس محالاً ان تستعيد عهد الأهرام المجيد .

وكان مونتو يتكلم باجلال عن الملك (نب حبت - رع) .. فهو جندي من الطراز الأول ، ورجل ذو تقوى ،ومن العسير على الشمال الذي انتشر فيه الفساد والرشوة أن يقاومه طويلاً إن الحاجة تدعو إلى ان تكون مصر موحدة ، ومعنى ذاك ان أمام طيبة مستقبلاً باهراً !

وانصرف الرجال الذين شهدوا مراسم الدفن وهم يتناقشون أيضاً ، في ذلك الشأن .

ونظرت رنزنب خلفها إلى الصخرة ، وغرفة المقبرة المختومة ، فتمتمت قائلة :

- إذن هذه هي النهاية .

وشعرت بشعور الفرج ، فقد كانت تخشى شيئاً لا تدري كنهه ، وقد يكون اتهاماً او اعترافاً في اللحظة الأخيرة ، ولكن لم يحدث شيء من ذلك . ومضى كل شيء في هدوء .

وسمعت حنث عبارة رنزنب ، فاقتربت منها قائلة :

- نعم ، أرجو ان تكون هذه هي النهاية حقاً يا مولاتي !

فنظرت اليها رنزنب وسألتها :

- ماذا تعنين يا حنث ؟

فتفادت حنث نظرتها وردت :

- أقول إني آمل ان تكون هـذه هي النهاية ، ولكن ما نحسبه النهاية لا يلبث أحياناً حتى يتضح إنه البداية !

فسألتها رنزنب غاضبة :

– عم تتحدثين يا حنت ؟. ما الذي تريدين أن تقوليه ؟

– ليس من عادتي التلميح بشيء ، إن نوفرت قد دفنت ، وكل إنسان راض ، ومن ثم سيكون كل شيء كما يجب ان يكون .

– هل سألك أبي عن رأيك في موتها ؟

– نعم سألني يا مولاتي ، والحق انه عنى كثيراً بأن أبدي له رأيي كاملاً غير منقوص !

فعادت تسألها :

– وماذا ذكرت له ؟

فردت حنت بقولها :

– لقد ذكرت له ، طبعاً ، إني أظن موتها قضاء وقدراً ، وأكدت له أن ليس هناك ما يدعو إلى الظن بأن أحداً من أفراد الأسرة قد مس الفتاة بأذى؟ لأنهم جميعاً أشد احتراماً له ، من أن يفعلوا ذلك ، وقد يتذمرون ولكنهم لا يزيدون على ذلك شيئاً .. وكذلك أكدت له انه لم يحدث أي شيء يمكن أن يعد من قبيل العدوان .

– وهل صدقك أبي ؟

فأومأت برأسها موافقة وقالت :

– إن أباك على يقين من اني مخلصة له ، حريصة على صالحه .. وهو دائماً ، يصدق ما تقوله حنت العجوز .. إنه يقدرني أكثر مما يقدر أحداً منكم .. ولهذا ، أخلص له ، ولكم جميعاً ، ولا أنتظر منكم جزاء ولا شكوراً ..

– هذا صحيح ، وقد كنت مخلصة لنوفريت أيضاً !

– إن نوفريت لم تكن داهية إلى الحد الذي حسبته ، لقد كانت فتاة متكبرة ، تظن انها ملكت العالم .. إن عليها الآن أن تقنع قضاتها

في العالم الآخر ، ولن يساعدها حسن وجهها هناك . وعلى أي حال ، قد خلصنا منها !

ثم زادت الى ذلك أن همست قائلة وكأنها تحدث نفسها :

– هذا ، على الأقل ، ما أرجوه !

* * *

نظرت رنزنب بعطف إلى أخيها يحموز حين جاءها ، وقد بدا عليه القلق ، ثم قال لها :

– أريد ان أحدثك عن ساتيبي ، يا رنزنب . فقد اعتراها شيء لا أفهمه !

فهزت رنزنب رأسها أسى وأسفاً ، ولم تجد كلمة عزاء تقولها فسكتت ، بينما واصل يحموز كلامه فقال :

– لقد لاحظت تغيراً إعتراها منذ حين ، إنها ترتاع وترتجف ، كلما فوجئت بصوت غير مألوف .. وقد صدفت نفسها عن الطعام ، وصارت تدب في المنزل ، وكأنها خائفة من ظلها ، لا بد انك لاحظت ذلك أيضاً ، يا رنزنب

– أجل .. فقد لاحظناه كلنا .

– وقد سألتها : أتشعر بأنها مريضة ؟. وهل أبعث في طلب طبيب يعالجها ؟. فردت بأنها لا تشكو أي مرض ولا أي شيء .

ورأت رنزنب ان عليها ان تقول لأخيها الأكبر شيئاً يخفف من قلقه ومخاوفه ، فقالت :

– إنها تصر على انها بخير، ولا ينقصها أي شيء .

فتمتم يحموز قائلاً :

إنها لا تكاد تجد سبيلا إلى النوم ، فإذا حدث أن نامت فسرعان
ما تستيقظ صارخة خائفة ، وتصرخ في نومها .. أترين انها تكن حزنا وهما
لا نعرفه ؟ .

فهزت رنزنب رأسها معارضة وقائلة :

– ليس هناك ما يدعو إلى مثل هذا الظن . فالأطفال بخير ، ولم يحدث في
الدار ما يوجب الحزن فيما عدا وفاة نوفرت ، وهـذه لا يمكن ان تثير في نفس
ساتيبي أي حزن أو أسف .

– إن التغيير الذي حصل لها بدأ قبل وفاة نوفريت .

وبدا عليه انه ليس على يقين من ذلك فواصل كلامه قائلا :

– نعم .. هذا على ما أظن . وأنت ؟ ألم تلاحظي تغيرا في ساتيبي قبل
وفاة نوفريت ؟

– الحق إني لم ألحظه عليها إلا بعد هذه الوفاة .

فتنهد يحموز أسفا وعاد يسألها :

– ألم تقل لك ساتيبي شيئا .. أواثقة أنت ؟

فهزت رنزنب رأسها مجيبة :

– كلا .. وإني لا أحسبها مريضة ، بل يخيل لي انها خائفة .

فبدت الدهشة في وجهه وقال :

– خائفة ؟. مم تخاف ؟ لقد كان لها دائما شجاعة الأسد .

– أعرف ذلك . لقد كنا جميعا نحسبها هكذا .. ولكن الناس يتغيرون،
وهذا أمر عجيب .

ولم يقتنع بهذا وسألها :

– أتظنين ان كيت تعرف شيئا ؟. هل صارحتها ساتيبي بشيء ؟

– إنها أدنى الى ان تصارحها من ان تصارحني ، ولكني لا أظنها صارحتها
بشيء ، بل إني موقنة بهذا

– وما هو رأي كيت ؟

– كيت ؟. إنها الآن لا تفكر في أي شيء .

وتذكرت رنزنب ان كيت انتهزت فرصة الوداعة التي طرأت على ساتيبي
فأخذت لنفسها ولأطفالها أحسن الكتان الذي تم نسجه أخيرا ، وهو ما كانت
لا تجرؤ عليه ، لو أن ساتيبي بقيت على حـــالها ، بل كان المنزل يمتلىء
بضجة الشجار .

إن كون ساتيبي تركت كيت تختار ما يروقها من القماش قد أثار دهشتها
أكثر من أي شيء آخر ؟

ولهذا سألت أخاها يحموز:

– هل تحدثت إلى ايزا ؟. إن جدتنا تعرف النساء وطرائقهن .

فقال بشيء من الامتعاض :

– إن ايزا تحمد الرب على هذا التغيير الذي طرأ على ساتيبي وتقول انمن
الغلو في التفاؤل ان نأمل دوامه .

فسألته بعد تردد :

– هل تحدثت مع حنث ؟

فقطب يحموز جبينه وقال :

– حنث ؟. كلا . ما كنت لأتحدث معها عن هذه الأمور . إنها تتدخل
فيما لا يعنيها ، وأبي يحترمها كثيرا .

– أعلم ذلك .. إنها متعبة .. غير انها تعرف كل سر .

– ألا تسألينها وتخبريني بما تقوله ؟

– لا بأس بذلك .

ثم افترقا على هذا .

ومضت رنزنب تبحث عن حنث حتى وجدتها اخيرا على مقربة من سقيفة
النسيج ، فلما سألتها عن حالة ساتيبي ، دهشت إذ وجدتها تنزع من هـــذا

السؤال ، وتلمس قيمة تحملها ، ثم تعزف عن الإفاضة في الحديث كعادتها ، مكتفية بقولها :

ـ ليس هذا من شأني .. ليس من مهمتي ان ألحظ بقاء أحد هنا على حاله المألوفة أو تغيره .. إني لا أعنى إلا بشؤوني الخاصة . وإذا كانت هناك مشاكل فإني لا أحب ان تكون لي يد فيها .

فسألتها رنزنب :

ـ مشاكل ؟. أي مشاكل تقصدين ؟

فتمتمت حنث قائلة :

ـ لا شيء مما يعنينا على اي حال ، إني أنا وأنت يا رنزنب لم نفعل شيئا يؤنبنا ضميرنا من أجله . وهذا عزاء كبير لي .

ـ أتعنين ان ساتيبي ..

فقاطعتها حنث قائلة :

ـ لا أعني شيئا مطلقا يا رنزنب .. وأرجو منك ألا تحاولي معرفة شيء مني اني لست أكثر من خادمة في هذه الدار ، وليس من شأني ان أبدي رأيا في أمور لا تخصني ، ولو سألتني رأيي عن ساتيبي ، فاني اقول لك ان التغيير الذي اعتراها هو خير ، وهي إذا بقيت على حالها الآن فهي تحسن صنعا .

ثم تركتها منصرفة إلى سقيفة النسيج وهي تقول :

ـ معذرة يا مولاتي ، اريد ان أتفقد سير العمل ، إن القائمات بمهمة الرسم على الكتان يتكلمن ويضحكن كثيراً ، وهذا يؤثر في عملهن .

فبقيت رنزنب تتابعها بنظراتها حتى اختفت داخل السقيفة . ثم عادت هي بخطى بطيئة إلى المنزل ، ودخلت غرفة ساتيبي دون ان تسمع هذه وقع خطاها .

فلما شعرت بيدها تلمس كتفها صرخت قائلة :

ـ لقد روعتني يا رنزنب .. لقد فكرت ..

ثم سكتت دون ان تتم عبارتها ، فسألتها رنزنب :

ـ ماذا دهاك يا ساتيبي ؟ إن يحموز قلق لأجلك .

ـ يحموز ؟. وماذا قال ؟

ـ هو قلق ، لأنك في نومك تصرخين وتتكلمين .

فذعرت ساتيبي وسألتها :

ـ أنا اتحدث في نومي ؟ ماذا سمع مني يحموز ؟ أم يخبرك بذلك ؟

ـ لا عليك ، يا ساتيبي ، هو وانا لا نحسبك إلا مريضة ، او قلقة لسبب ما ..

ـ قلقة ؟. ماذا يقلقني ؟. إني لا أدري .

ـ أسعيدة انت يا ساتيبي ؟

فبغتت ثم ردت قائلة :

ـ ربما .. لا ادري .. ليس هذا هو المشكلة .

ـ كلا .. ولكنك خائفة ، اليس كذلك ؟

فنظرت اليها ساتيبي شذراً واجابتها :

ـ ولماذا تقولين ذلك ؟. ولماذا أكون خائفة ؟. ما الذي يمكن ان يخيفني ؟.

ـ لا ادري ، ولكنه صحيح ، اليس كذلك ؟

فاستعادت ساتيبي بجهد ، سمات التبجح الذي كان لها ، من قبل ، وقالت :

ـ كلا .. لست خائفة من شيء ، ولا من احد .. كيف تجرئين على قول ذلك لي يا رنزنب ؟. إني لا اسمح لك بالحديث عني مع يحموز ، إني انا ويحموز يفهم كل منا الآخر .

وسكتت لحظة ثم قالت بحدة :

-- إن نوفريت قد ماتت ، وقد خلصنا منها وهذا ما أقوله ، ويمكنك ان تخبريه لكل من يسأل عن شعوري .

ثم تولاها الغضب فجأة من جديد ، فقالت بحدة أشد :

– نوفريت؟!. نوفريت ؟!. لقد سئمت سماع هذا الاسم.. ويجب ألا نسمعه بعد اليوم في هذا المنزل . ولنحمد الرب على ذلك !

وفي هذه اللحظة دخل يحموز ، فخفضت ساتيبي من صوتها ، ثم سكتت بينما قال لها هو :

– إهدئي يا ساتيبي ، إن أبي لو سمع هذا الذي تقولين لكانت العاقبة سيئة، كيف تكونين بهذه الحماقة ؟

وكان يحموز يتكلم بلهجة حازمة غير مألوفة منه،فسرعان ما عاود ساتيبي ضعفها وانهيارها وتمتمت قائلة :

– إني آسفة يا يحموز ، وقد فاتني حقاً ان أفكر في ذلك !

– إذن . كوني أكثر حذراً في المستقبل .. إن النساء دائماً ضعيفات العقـل !

فتمتمت ساتيبي مكررة أسفها في خنـوع وخضوع ، ثم غادر يحموز الحجرة منصوب القامة وبخطى ثابتة ، وكأن توكيده سلطته على زوجته قد أرضاه ..

وانصرفت بعده رنزنب إلى غرفة ايزا العجوز ، لعلها تجد عندها النبأ اليقين !.

وكانت ايزا تأكل عنباً فلم تتلق الأمر بجد واهتمام وقالت :

– ساتيبي ؟!. ساتيبي ؟!. ما هذه الضجة التي حولها ؟ إن سلوكها هذا أحسن من ان يدوم ، إلا إذا استطاع يحموز أن يبقيها كذلك ! أجل إنه يبدو الآن كأنما استعاد ما غرب من عقله ، وقد أحسن إذ أخذهـا بسياسة الضرب . إن هذا ما كانت تحتاج اليه فلا شك في أنها من ذلك الطرز من

النساء اللاتي يجدن المتعة في الضرب ، ولا بد ان يحموز بوداعته ولينه كان امتحاناً قاسياً لها .

– إن يحموز أهل لأن يكون محبوباً .. إنه شفيق بالجميع ، ووديع كأنه إمرأة ، إذن كن وديعات .

– هذا استدراك في محله يا حفيدتي كلا . ليس بالنساء وداعة .. وقل بينهن من تهتم لزوج شفيق رقيق ، فأكثرهن يؤثرن الشاب الوسيم الجعجاع ، مثل سوبك ، أو الشاب الأنيق مثل كامني .. أليس كذلك ، يا رنزنب ؟. إن الذباب الذي بفناء الدار لا يستقر عليه كثيراً ، ثم انه يحسن غناء أغاني الحب أيضاً .

فشعرت بالدم يصعد إلى خديها وردت برزانة

– لا أدري ماذا تقصدين ؟

– إنكم جميعاً تحسبون ان ايزا العجوز لا تعلم ما يدور بالمنزل، لكني أعرف كل شيء .

ثم نظرت إلى رنزنب بعينيها اللتين كادتا تعميان وقالت :

– نعم ، إني ربما أعرف كل شيء قبل أن تعرفي أنت شيئاً يا بنيتي ، هذه سبيل الحياة يا رنزنب . لقد كان خاي أخاً صادقاً لك ولكنه يقود شراعه الآن في ميدان الهبات ، وستجد الأخت أخاً جديداً يصيد سمكه بالحراب في نهرنا ، وإن يكن كامني قليل البراعة ، فإن كل ما يجلب لبـــه قلم من البوص ورقعة من ورق البردى . ومع هذا فإنه شاب وجيه حسن الذوق في الأغاني ، ورغم كل ذلك لست موقنة انه الزوج اللائق بك ، فنحن لا نعلم كثيراً عنه ، وهو من أبناء الشمال . إن امحوتب راض عنه ولكني أعتقد دائماً ان امحوتب أحمق ، وأي إنسان يمكن ان يكسب ثقته بالزلفى ، أنظري إلى حنت مثلاً .

– إنك مخطئة فيما تذهبين اليه يا جدتي .

- حسناً . . أنا مخطئة إذن ، وأبوك ليس أحمق .

- لم أقصد هذا ، إني أتمنى .

فقاطعتها جدتها قائلة :

- إني أفهم ما تعنين ، ولكنك لا تعرفين النكتة الجيدة . سوف تكونين هكذا فيما بعد حين تبلغين سني . . ثم ترين ابنك يجن حباً بفتاة حسناء ، وتربنها تجعل المنزل كله آذاناً مصغية . . لقد كانت داهية ، وكانت تعرف كيف تغيظهم جميعاً ، فكأنها كانت ترغمهم على النظر إلى وجوههم في صفحة الماء ، وكانت تريهم كيف يبدون للناس على حقيقتهم ، ولكن لماذا كرهتك يا رنزنب ؟ أجيبي عن ذلك

فسألتها في دهشة :

- أكانت تكرهني ؟ لقد حاولت يوما ان أكسب مودتها .

فأجابتها ايزا :

- لكنها لم ترض . فقد كرهتك حقا يا رنزنب .

وسكتت ايزا لحظة ثم قالت :

- أكان ذلك بسبب كامني ؟

فاحمرت وجنتا الفتاة وردت :

- كامني ؟ . لا أدري ماذا تقصدين ؟

- ان نوفرت وكامني قد وفدا كلاهما من الشمال، ولكن كامني كان يرقبك كلما خطرت أمامه في فناء الدار .

وهنا استدارت رنزنب للانصراف بغتة قائلة :

- يجب أن أذهب لأرى ابنتي .

ثم خرجت وسارت مسرعة ، في فناء الدار ، وضحكة جدتها تتبعها . فلما توسطت الفناء ، وصل اليها صوت كامني ، يناديها من الشرفة قائلا :

- تعالي يا رنزنب ، لقد ألفت أغنية جديدة فهيا اسمعيها .

فهزت رأسها وأسرعت في طريقها ، وكان قلبها يدق دقا عنيفا من الغضب .

* * *

كرر حوري اسم رنزنب مرتين قبل ان تسمعه وتنظر اليه بعد ان نظرت الى النيل متأملة بعمق ، ثم قال لها :

- لقد كنت مستغرقة في التفكير يا رنزنب . ففيم تفكرين ؟

فردت عليه متحدية :

- كنت أفكر في خاي .

فنظر اليها لحظة ثم ابتسم وقال :

- فهمت .

غير انها ادركت انه لم يفهم ، فقالت له :

- ماذا يحدث للانسان حين يموت ؟ أيعلم ذلك احد علم اليقين ؟ . ان العبارات والرموز التي تكتب على الأكفان ، كلها من الغموض بحيث لا تعني شيئا مطلقا . اننا نعرف ان أوزيريس قتل ، وان جسمه عاد فانضم بعضه الى بعض ، وهو يلبس التاج الأبيض ، ونحن من اجله لا نموت ، ولكن يا حوري يبدو لي أحيانا انه ليست ثمة حقيقة في كل ذلك ، وهو كله شيء مضطرب .

فأومأ حوري برأسه موافقا ، واستطردت هي قائلة :

- ولكن ماذا يحدث حقا بعد الموت ؟ هذا ما أود لو أعرفه .

- لا يمكنني ان أجيبك يا رنزنب . . يجب ان تسألي كاهنا في مثل هذه الأمور .

– انه لن يجيب الا بالشرح المعتاد . ولكني أريد ان أعرف الحقيقة .

فقال حوري بلطف :

– لن يعرف أحد منا الحقيقة الا بعد أن يصير في عداد الأموات .

فارتجفت عند سماعها ذلك وردت :

– لا تقل ذلك .

– هل أزعجك شيء يا رنزنب ؟

– اجل ، أزعجتني ايزا جدتي العجوز .

ثم سكنت قليلا ، وتابعت قائلة :

– أخبرني يا حوري . هل كان كامني ونوفريت يعرف أحدهما الآخر قبل مجيئهما الى هنا ؟

فصمت حوري هنيهة ، ثم قال وهو يمشي صوب المنزل معها ، جنبا الى جنب :

– فهمت ، اذن .. هذا ما أزعجك ؟

– ماذا تعني بذلك ؟. اني انما أسألك سؤالا .

– اجل ، لكنني لا أعرف جوابا .. ان نوفريت وكامني كانا متعارفين في الشمال ، ولكن لا ادري الى أي حد بلغ تعارفهما حينذاك . وعلى اي حال ماذا يهمنا ذلك الآن ؟

– لا أهمية له مطلقا ، ان نوفريت قد توفيت .

– اجل توفيت وحنطت وختم على قبرها

ثم أضاف حوري بهدوء :

– كامني لا يبدو عليه الحزن لوفاتها .

– هذا صحيح .

وبعد لحظة قالت :

– آه يا حوري ، ان المرء يجد عندك الطمأنينة .

فابتسم حوري وقال :

– لقد كنت أصلح الأسد الخشبي لرنزنب وهي طفلة . والآن عندها دمى أخرى .

ولما وصلا الدار لم ترد الدخول وقالت :

– لا أود ان أدخل الدار الآن ، اني أبغضهم جميعا ، لا أعني البغض الحقيقي . ولكنني أشعر بكراهية لهم ، لأن كل واحد منهم شاذ ، وأنا قد نفد صبري . ألا نصعد الى المقبرة ؟ انه مكان جميل هناك .. فوق كل شيء .

– وهذا ما أشعر به انا ايضا يا رنزنب ، فهناك يرى المرء ان الدار والمزرعة والزراعة كلها قليلة الأهمية ، فننظر الى ما وراءها كلها الى النهر وما وراءه ، الى مصر كلها ، لأنه قريبا ستصبح مصر ثانية مملكة واحدة قوية عظيمة ، كما في القديم .

فتمتمت هي متسائلة :

– وهل هذا أمر مهم ؟

فابتسم حوري وقال :

– طبعا ، لا يهم سيدتي الصغيرة ، انما يهمها أسدها وحدها .

– انك تسخر مني ، اذن فالأمر مهم بالنسبة لك ؟

فتمتم حوري قائلا :

– ولماذا يهمني ؟ اجل ، لماذا ؟. اني لست الا وكيل أعمال كاهن كا . فلماذا يهمني ان تكون مصر كبيرة ام صغيرة ؟

فلفتت رنزنب نظره الى صخرة فوقهما قائلة :

– لقد ذهب يحموز وساتيبي الى المقبرة ، وهما يهبطان الدرب الآن .

فقال حوري :

– أجل ، فقد كانت هناك بعض أشياء يجب أن تزال ، بعض لفات من الكتان لم يستعملها المحنطون ، وقد قال لي يحموز انه سيأخذ ساتيبي إلى هناك لتدله على ما يمكن أن يعمله بذلك القماش .

ووقف الاثنان ينظران إلى يحموز وساتيبي وهما يهبطان الدرب ، فلما بلغا بقعة هناك توقفا قليلا ، وكانت ساتيبي تسير إلى الأمام ويحموز خلفها على مسافة قريبة .

وفجأة أدارت رأسها ملتفتة اليه كأنما تحدثه ، وهنا خطر ببال رنزنب ان هذه البقعة هي التي سقطت فيها نوفريت سقطتها الأخيرة ، كما خيل اليها ان ساتيبي إنما التفتت إلى يحموز لتحدثه بذلك .

ولكن ساتيبي وقفت في مكانها جامـدة ، وأخذت تنظر إلى الدرب خلفها ، ثم رفعت ذراعيها كأنما لتتلافى منظراً مخيفاً او لتصد ضربة ستنزل بها ، ثم صاحت ، فتعثرت ، وجرى يحموز اليها ، وإذا بها تصرخ صرخة مدوية ثم تندفع إلى طرف الطريق وتهوي منه إلى الصخور السحيقة !

ورأتها وهي تسقط ، فكادت ألا تصدق عينيها ، لكنهـا جرت بأقصى قوتها صوب المكان الذي سقطت ساتيبي فيه جثة هامدة محطمة حيث رقد جثمان نوفريت من قبل .

وكان يحموز قد جرى كذلك هابطاً الدرب حتى وصل إلى ذلك المكان ، ثم انحنت على جثمان ساتيبي فرأت عينيها مفتوحتين وأهدابهـا تضطرب ، وشفتيها تتحركان كأنها تريد ان تقول شيئاً ، فامتلأت رعباً من نظرتها . ثم استطاعت ساتيبي أن تقول بصوت واهن : « نوفريت » .. وسقط رأسها إلى الخلف وهبط فكها ، وكان هذا آخر عهدها بالكلام .

ووقف حوري بجانب يحموز أمام جثمان ساتيبي واجمين .

وقالت لأخيها :

– ماذا قالت قبل ان تسقط ؟

وكان يحموز متقطع الأنفاس ، لا يكاد يقدر على الكلام ، فأجاب بكلمات متقطعة قائلا :

– لقد نظرت ورائي .. من فوق كتفي .. كأنها ترى أحـداً قادماً .. ولكن لم يكن أحد هناك ..

فردد حوري قوله :

– لم يكن أحد هناك ..

واستأنف يحموز كلامه وقد انخفض صوته حتى صار همساً ، لفرط ما اعتراه من الرعب فقال :

– وعندئذ صاحت و

فقطعت رنزنب كلامه سائلة في لهفة :

– ماذا قالت ؟

فأجاب بصوت مرتعش قائلا :

– صاحت قائلة .. نوفريت . نوفريت !

- ٧ -

قالت رنزنب لحوري وهي جالسة عند مدخل الغرفة الصخرية الصغيرة المجاورة للمقبرة ، تنظر الى الوادي السحيق مسندة ذقنها إلى يديها :

– إذن هذا ما كانت تعنيه ؟ إن ساتيبي هي التي قتلت نوفريت !

وكان حوري ما زال ساكتاً ، ولم يجب عن سؤالها ، فلم يسعها إلا أن تتابع خواطرها علناً ، قائلة له :

– لقد كنت موقنة ان سوبك ..

لكنها لم تتم عبارتها فقال لها حوري :

– اجل ، كان هذا رأياً مبتسراً يا رنزنب .

فأومأت برأسها موافقة قائلة :

– كان حماقة مني ولا شك ، ولقد أخبرتني ، او تركتني افهم ان ساتيبي سلكت هذه الطريق ، بعد أن سبقتها اليه نوفريث ، وهناك تقابلتا وسط الدرب ، ودفعت ساتيبي نوفريت دفعة قوية مفاجئة فهوت متردية من حالق ، وكانت قد ذكرت قبل ذلك بقليل انها أكثر رجولة من أخوي الاثنين !

وسكتت وقد تولتها رعدة ، ثم قالت :

– كان ينبغي لي أن أدرك ما حدث منذ قابلتها بعد ذلك ، فقد كانت

غير ما الفتها ، كانت خائفة ، وحاولت ان تغريني بالعودة معها ، ولا شك انها كانت لا تحب أن اعثر بجثة نوفريت ، لا ريب اني كنت عمياء إذ لم أر الحقيقة وقتئذ .. ولكني كنت لا اتوقع ما حدث إلا من سوبك .

– إني اعرف هذا ، فقد دعاك إلى إساءة الظن به انه قتل الأفعى

– اجل ، ثم رأيت في المنام رؤيا . مسكين سوبك .. لقد اسأت الظن به .. وكما قلت انت ان الوعيد غير الفعل ، لقد كان سوبك دائماً كثير الكلام والفخر ، وساتيبي هي التي كانت جريئة ولا تهاب شيئاً ، ثم تذكر كيف صارت منذ ذلك الحين تسير كالشبح ، حتى حزنا جميعاً في أمرها ، لماذا لم نهتد إلى التفسير الصحيح ؟

وسكتت تنتظر ما يقول ، ثم استأنفت كلامها قائلة :

– انت قد اهتديت اليه .

– الواقع اني بقيت فترة من الزمن وأنا موقن بأن مفتاح الحقيقة في امر وفاة نوفريت إنما هو التغير العجيب الذي اعترى ساتيبي ، لقد كان شيئاً يلفت النظر ولا بد ان له باعثاً .

– لكنك بقيت ساكتاً ؟

– وماذا استطيع قوله ، واي دليل كان بيدي ؟

– صدقت ، لم يكن هناك أي دليل ..

– إن الأدلة يجب ان تكون وقائع ثابتة مجسمة .

والتفتت الى حوري متسائلة :

– ما الذي رأته ساتيبي هناك في الدرب ؟ إننا نحن لم نر أي شيء .

– لكنها هي رأت شيئاً ولا شك ، ولعلها رأت نوفريت مقبلة لتنتقم منها . ولكن نوفريت توفيت وختم على قبرها .. فما الذي رأته ساتيبي إذن ؟

– لا بد إنها رأت الصورة التي ارتسمت في مخيلتها لنوفريت .

- اواثق أنت من صحة احتمال هذا ؟ إن الأمر إذا لم يكن هكذا ..

ثم سكتت ولم تكمل عبارتها ، فنظر اليها متسائلا ، وأرهف سمعه لتتم كلامها فقالت :

- أترى الأمر قد انتهى الآن يا حوري بعد ان توفيت سانيبي ؟ هل انتهى حقاً ؟

فأمسك يديها بين يديه مطمئناً وقال :

- أجل يا سيدتي . ولا شك انك على على الأخص لا ينبغي لك ان تخافي شيئاً ؟

- لكن إيزا تقول أن نوفريت كانت تكن لي البغض ؟

فبدت الدهشة في وجهه وقال :

- نوفريت كانت تبغضك ؟

- هذا ما قالته لي إيزا .

- لقد كانت بارعة في البغض ، وكنت أحسبها أحيانا تبغض كل شخص بالدار ، ولكنك على الأقل لم توذيها بشيء .

- اجل ، لا أذكر اني آذيتها قط ..

- من أجل هذا ليس في مخيلتك شيء يقوم ضدك ؟

ففكرت هنيهة ثم سألته :

- أتعني اني إذا مشيت في ذلك الدرب وحدي عند الغروب، وهو الوقت الذي توفيت فيه نوفريت ، فاني أكون في أمان ؟ ولا أرى شيئاً يخيفني إذا التفت خلفي ؟

- أجل ، ستكونين في امان ، لأنك اذا سرت في ذلك الدرب فسأسير معك ولن يصيبك مكروه

فقطبت جبينها وهزت رأسها قائلة

- كلا ، بل سأسير وحدي .

- ولكن ألا تخافين إذا سرت وحدك في الدرب ؟

- أحسبني سأخاف ، ومع هذا يجب ان اسير وحدى هناك ، ان جميع من بالدار قد تولاهم الرعب ، وهم يهرعون إلى المعابد لشراء التمائم والتعاويذ ، ويحذر بعضهم بعضا من سلوك طريق المقبرة عند الغروب ، على ان السحر فيما اعتقد ليس هو الذى جعل سانيبي ترمي بنفسها من شاهق ، وانما الخوف ، الخوف من شر صنعته ..

وصمتت لحظة ، ثم استطردت قائلة :

- اجل انه لشر ذلك الذى اتته بقتلها فتاة في عنفوان شبابها وقوتها واستمتاعها بالحياة ، اما انا فلم آت مثل هذا الشر ، واذا كانت نوفريت تبغضني فإنها لا تستطيع ايذائي ، هذا ما اعتقد ، وعلى اى حال اذا قدر لانسان ان يعيش حياته في خوف فخير له ان يموت .. ولهذا سأتغلب على الخوف .

فابتسم حورى وقال

- هذه كلمات تدل على الشجاعة يا سيدتي ؟

- اجل ، انها تدل على الشجاعة ، ولكن الواقع ان شجاعتي اقل مما تصورت .

ثم ابتسمت له وقامت من مقعدها قائلة :

- على اى حال ؟ لقد ارتحت اذ قلتها ..

فقام حورى ووقف بقربها وقال :

- سأذكر لك هذه الكلمات .. وكيف رفعت رأسك الى الخلف وانت تقولينها .. فتدل على الشجاعة والصدق اللذين شعرت دائما بأنهما يعمران قلبك ..

- احسبني ادركه يا حورى . انك تختلف عن الآخرين ممن معنا في الدار ، وقد ادركت ذلك من زمن ، واحيانا حين اكون معك أشعر بمثل

شعورك ، ولكنه شعور غامض غير واضح على اني افهم ما تعني ، وانا اذ اكون هنا لا ابالي شؤون الدار هناك ، بما فيها من شجار وبغضاء وضجيج ، فها هنا يفر الانسان من كل ذلك ؟

وسكتت وقد تجمد جبينها ثم اردفت قائلة بتردد :

– اني احيانا اشعر بالسرور لفراري من المنزل الى هنا ، ومع هذا اشعر بأن في المنزل شيئا يناديني اليه .

فترك حوري يدها وتراجع قليلا الى الوراء وقال برفق :

– اجل ، اني افهم ، فهو كامنى اذ يغنى في صحن الدار ؟

فنفرت قائلة :

– ماذا تعنى يا حورى ؟ فلم اكن افكر في كامنى ..

– ربما لا تفكرين فيه ، ومع هـذا يا سيدتي يخيل الي انك تسمعين غناءه من حيث لا تدرين ؟

فحملقت فيه رنزنب عابسة وتمتمت :

– ما اغرب ما تقوله يا حوري . ان الانسان لا يمكن ان يسمعه من هنا وهو يغني في صحن الدار .. فان المسافة جد طويلة .

فتنهد حورى وهز رأسه ، وحيرتها نظرته كما حيرها قوله ، وشعرت بشيء من الغضب والدهشة لانها لم تفهم ما يعنيه .

* * *

وقفت حنث بباب غرفة ايزا مبتسمة ابتسامة التودد وسألتها :

– اتسمحين ان اكلمك لحظة يا ايزا ؟

فسألتها العجوز بحدة

– ماذا تريدين ؟

فردت حنث قائلة :

– لا شيء ذا خطر ، فيما أعتقد ، ولكني أردت ان أسألك عن بعض أشياء .

وأومأت ايزا اليها بأن تدخل . ثم ربتت بعصاها كتف جارية سوداء كانت تنظم قلادة من الخرز قائلة :

– إذهبي إلى المطبخ ، وائتيني ببعض الزيتون .. ثم أعدي لي كوب ليمون .

فسارعت الجارية إلى المطبخ ، بينما أشارت ايزا إلى حنث لكي تقترب منها ، ثم نظرت اليها متسائلة ، وما لبثت هذه أن أخذت من جيبها علبة صغيرة للحلى ذات غطاء يغلق بزرين ، ومدت بها يدها إلى ايزا قائلة :

– لقد جئت اليك من أجل هذه العلبة يا ايزا .

فأخذت تنظر بعينيها الضيقتين ، تارة إلى العلبة وتارة إلى حنث، ثم قالت هذه بعد قليل :

– إنها علبتها .. وقد وجدتها الآن في غرفتها .

– أتقصدين ساتيبي ؟

– كلا .. كلا .. بل أقصد الأخرى .

– نوفريت ؟. وأية أهمية لذلك ؟

– إن كل حليها وأوعية زينتها وأوعية عطورها قد دفنت معها ، كما تعلمين .

ففكت ايزا رباط العلبة من زريها ، وأخذت منها خيطاً نظم به حبات عقيق أحمر ونصف خرز أخضر لامع إنكسر شطرين ثم قالت :

– إنه ليس شيئاً ذا قيمة . ولعله لذلك لم يدفن معها ؟

– لكن المحنطين أخذوا كل شيء يخصها .

- لا بد أنهم نسوا هذا ، ألا يسهون مثل غيرهم من البشر ؟

- لكني متأكدة يا ايزا ان هذه العلبة لم تكن موجودة في غرفتها حين فتشتها آخر مرة .

فنظرت اليها ايزا نظرة فاحصة قائلة :

- ماذا ترمين اليه يا حنث ؟ أتريدين أن تلقي في روعي أنها عادت من العالم السفلي وانها موجودة الآن بالدار ؟. إنك لست بلهاء حقيقة وإن كنت أحياناً تدعين البلاهة . على إني لا أدرك مـاذا يهمك من نشر قصص السحر السخيفة ؟

فهزت حنث رأسها بتطير قائلة :

- نحن جميعاً نعلم ما حدث لساتيبي ، ونعلم السبب .

- قد يكون هذا صحيحاً ، ولعل بعضنا كان يعلمه من قبل . أليس كذلك يا حنث ؟. فقد كنت دائماً أحسبك تعرفين عن الطريقة التي توفيت بها نوفريت أكثر منا جميعاً .

- إنك يا ايزا لا يمكن ان تتصوري لحظة أن .

فقاطعتها ايزا قائلة :

- ماذا أتصور ؟. إني لا أخاف من تصور شيء يا حنث ، فقد شهدت ساتيبي في الشهرين الأخيرين ، تدب في المنزل والخوف يكاد يقتلها ، وخطر ببالي منذ حين ان ما صنعته بنوفريت ربما وقف على سره أحد ، فهددها بافشاء السر ليحموز او لأحوتب نفسه .

فأخذت حنث تؤكد انها لم تكن تعلم شيئاً فقالت لها ايزا :

- إني لم أتصور قط ان تعترفي بأنك تفعلين مثل هذا .

- ولماذا أفعله ؟ ليس ثمة أي داع اليه .

- الواقع انك ، يا حنث ، كثيراً ما تفعلين أشياء ، لا أجد لها تفسيراً .

فتحفزت حنث للانصراف قائلة :

- سآخذ العلبة إلى أحوتب وأخبره .

- سأعطيه العلبة بنفسي . أغربي عني يا حنث وحذار ان تخبري قصصك الخرافية ، فقد أصبح المنزل أكثر سكوناً بعد ساتيبي ، ونوفريت الميتة قد أفادت أكثر منها حية ، والآن وقد تم الوفاء بالدين فليعد كل إنسان إلى واجباته اليومية .

ومضت ايزا في القاء تعليماتها ونصائحها بأعلى صوتها ، ثم انصرفت حنث ، وبعد دقائق جاء أحوتب إلى غرفة أمه وقال لها :

- ما هذا كله ؟ إن حنث في شدة الكدر .. فقد جاءت إلي ودموعها تنحدر على وجهها .. لماذا لا تحظى هذه المرأة المخلصة حق المجاملة المعتادة من أي أحد في هذا المنزل ؟

فلم تتحرك ايزا ، ولم تجب ، وإنما ضحكت ضحكتها التي تشبه نق الدجاج .

فاستطرد أحوتب قائلاً :

- قد اتهمتها بسرقة علبة حلى ، على ما فهمت .

فأجابته أمه :

- أهذا ما قالته لك ؟. إني لم أتهمها بذلك ، وها هي ذي العلبة . يظهر انها وجدت في غرفة نوفريت .

فأخذ أحوتب العلبة ونظر اليها وقال :

- إنها العلبة التي أهديتها اليها

ثم فتحها وقال :

- ليس بها شيء ذو قيمة ، فقد كان المحنطون جد مهملين ، إذ لم يأخذوها مع الأشياء الأخرى التي تخصها ، حيال الأجور الفادحة التي يطلبها ايبي ومونتو كان جديراً بمثاله على الأقل ألا يكونوا بهذا الاهمال ، وعلى أي حال يبدو لي

أن الأمر ليس بالأهمية التي وصف بها .

ثم تابع :

ـ إني كنت مرتاحاً لسلوك يحموز ، في المدة الأخيرة .. فهو يبدو أكثر اعتماداً على نفسه ، وأقل خوفاً ، وكان تصرفه حسناً ، في كثير من الشؤون .

ـ الواقع انه دائماً ولد طيب مطيع

فأومأ احوتب برأسه موافقاً وقال :

ـ أجل ، ولكنه ميال إلى البطء ، ويخاف ان يحمل التبعات .

فأجابته ايزا بجفاء :

ـ إنك لم تسمح له قط بأن يحمل التبعات .

ـ حسناً .. سيتغير كل ذلك عما قريب ، فإني أعد الآن وثيقة لإشراك أولادي الثلاثة في كل ما أملك ، وسينتهي إعداد هذه الوثيقة ، بعد أيام

ـ إذن سيكون ابيي شريكاً لك مع أخويه ايضاً ؟

ـ اجل .. ولو إني لم أدخله في الشركة لآذاه ذلك وهو فتى جدير بالحب والإعزاز .

فأجابته أمه ساخرة :

ـ لا بد انه لا يمكن ان ينسب اليه البطء .

فلم يتم احوتب كلامه وخرج مسرعاً .

- ٨ -

عادت الأسرة من المحكمة المركزية ، حيث سجل عقد الشركة ، وكان أفرادها جميعاً في نشوة الفرح ، ما عدا ابيي الذي استثني من الشركة في اللحظة الأخيرة بحجة صغر سنه ، ولذا كان عابس الوجه ، وغاب عن المنزل عمداً .

وكان احوتب مبتهجاً ، وقد أمر باحضار جرة من النبيذ إلى الشرفة ، وقال ليحموز وهو يربت كتفه :

ـ إشرب يا بني وانس الآن حزنك على زوجتك ، ودعنا لا نفكر إلا في الأيام السعيدة المقبلة .

وشرب احوتب ويحموز وسوبك وحوري نخب تلك المناسبة السارة . ثم جاء نبأ بأن ثوراً قد سرق ، فهب الرجال الأربعة مسرعين إلى المزرعة للبحث عنه .

ولما عاد يحموز إلى فناء الدار ، بعد ساعة تقريبا ، كان متعباً ، يشكو من الحر ، فذهب إلى حيث يوجد النبيذ وملأ منه كأساً برونزية ، ثم جلس في الشرفة يحتسيه . وبعد حين وجيز جاء سوبك مسروراً ، وقال له :

ـ زدني من النبيذ .. لنشرب نخب مستقبلنا الذي ضمناه أخيراً ، ولا بد

ان هذا يوم فرح لنا يا بحموز .

– حقا . ستكون حياتنا أيسر من قبل من جميع الوجوه

– إنك دائما ذو قصد في عواطفك يا بحموز .

ثم ضحك وتناول كأسا فتجرع ما فيها ، ولعق شفتيه بلسانه ، وهو يضعها جانبا .

وما لبث ان قال :

– لنر الآن أيبقى أبونا على طرقه العتيقة ، أم نستطيع إقناعه باتباع الطرق الحديثة ؟

– لو اني مكانك لصبرت ، ولكنك دائما متسرع .

فابتسم سوبك لأخيه إبتسامة ود . فقد كان في ذروة السرور . فقال له مداعبا :

– أنت تعمل بالمثل القائل « من تأنى نال ما تمنى » .

– هي الوسيلة المثلى في النهاية . ثم لا تنس ان أبانا كان شفيقا بنا ، فلا ينبغي لنا ان نأتي ما يغضبه .

فنظر سوبك اليه متسائلا وقال :

– هل تحب أباك حقا ؟ انك شخص ودود يا بحموز . أما أنا فلا أكترث لأي أحد ما عدا سوبك نفسه حياه الله وأبقاه .

وتناول سوبك جرعة اخرى من النبيذ .

فقال له بحموز بعطف :

– كن حذراً . إنك لم تأكل إلا قليـلا اليوم .. وأحيـانا حين يشرب المرء نبيذاً .

غير انه أمسك ولم يتم كلامه ، فسأله سوبك :

– ماذا بك يا بحموز ؟

– لا شيء . إنه ألم مفاجيء . لكنه لا شيء .

ولكنه رفع يده ، ومسح جبينه الذي بدأ يتصبب منه العرق .. فقال له سوبك :

– انك لا تبدو بحالة جيدة .

– قد كنت بخير حال إلى ما قبل هذه اللحظة .

فضحك سوبك وقال

– ما دام النبيذ لم يسممه أحد ..

ومد يده إلى آنية النبيذ ، غير ان يده جمدت ، ومال جسمه إلى الأمام وهو يتشنج من الألم ، وقال بصوت واهن :

– بحموز .. بحموز .. أنا أيضا .

وقام بحموز مسرعا ليرى ما دهى أخاه ، ولكنه سقط على الأرض وقد انحنى جسمه وصاح صيحة مكتومة .

واشتد الألم بسوبك ورفع صوته قائلا :

– الغوث . اطلبوا طبيبا .. طبيبا .

وجاءت حنث من داخل الدار تجري قائلة

– هل ناديت ؟ ماذا قلت ؟ ماذا حدث ؟

وجاء الآخرون على صياحها ، فوجدوا الأخوين يئنان من الالم . وقـال بحموز بصوت ضعيف .

– النبيذ . سم . طبيب ..

وصاحت حنث قائلة .

– شر جديد بالدار .. إن هذا المنزل قد حلت به اللعنة . أسرعوا . أسرعوا .. إبعثوا رسولاً إلى المعبد ، ليحضر الكاهن مرسو .. إنـه طبيب بارع .

* * *

كان أحوتب يذرع ارض القاعة الوسطى بالدار ذهابا وجيئة ، وقد ترمل رداؤه الكتاني الفخم واتسخ ، ولم يستحم او يغير ثيابه ، وكان الالم والخوف باديين على وجهه .

وهناك من أقصى الدار ، كانت تصل الى سمعه ، ولولة النساء وندبهن ، بعد الكارثة التي حلت بالأسرة ، وكانت حنث تحدوهن في النواح والندب .

ومن غرفة جانبية كان ينبعث صوت مرسو الكاهن الطبيب وهو منحن فوق جسم يحموز الهامد .

وقد تسللت رنزنب من جناح النساء إلى القاعة الوسطى ، بعد ان جذبها ذلك الصوت ، ثم مضت الى باب الغرفة ووقفت به وقد غمرها شعور الطمأنينة من سماع ترتيل الكاهن وهو يدعو قائلاً :

– يا ايزيس يا عظيمة السحر ، اطلقيني مما انا فيه ، ونجيني من كل سوء احمر ، ومن ضربة رب او ربة ، وخلصيني من اذى ميت او ميتة ، وأنقذيني من كل عدو ذكر او انثى .

وكانت رنزنب تردد الدعاء بقلبها قائلة :

– يا ايزيس العظيمة : انقذيه .. انقذي اخي يحموز .

وثارت الخواطر في ذهنها مضطربة . إذ سمعت الكاهن يردد دعاءه :

– ونجني من كل سوء أحمر .

وقالت تواصل تلك الخواطر وتخاطب الشخص الذي في ذهنها :

– ان يحموز لم يؤذك قط يانوفريت . واذا كانت ساتيبي زوجته فإنه لا يؤخذ بجريرتها ، وهو لم تكن له سيطرة عليها قط ، ولا لاحد سواه .. ان ساتيبي التي آذتك قد توفيت . افلا يكفيك هذا ؟ وسوبك ايضا ، قد مات . ولم يفعل سوى انه تكلم في حقك ، ولكنه لم يؤذك

مطلقا . يا ايزيس : لا تدعي يحموز يموت ، انقذيه من بغض نوفريت وانتقامها .

وكان أحوتب يروح ويغدو شارد الذهن ، فلما رأى ابنته غمره الحنان وقال لها :

– تعالي هنا ، يا بنيتي العزيزة .

فجرت اليه وأحاطته بذراعيها قائلة :

– آه يا أبي ماذا يقولون ؟

– يقولون أن هناك أملاً في إنقاذ يحموز .. أما سوبك ، ولدي القوي الوسيم ..

وغلبته العبرات فسكت . فقالت له ابنته :

– ألا يمكن عمل أي شيء ؟

– لقد عملنا كل ما أمكننا عمله ، فجرعناه أدوية مقيئة ، وعصير بعض الأعشاب القوية ، وجئناه بالتمائم ورتلت الأدعية والصلوات ، ولكن كل ذلك دون جدوى . إن مرسو طبيب بارع ، فإذا لم يستطع إنقاذ ولدي فان معنى ذلك ان الرب لم يرد إنقاذه !

وارتفع صوت الكاهن الطبيب بدعاء أخير ، ثم خرج من الغرفة يمسح العرق من جبينه فقال له أحوتب :

– ماذا هناك ؟

فأجاب الكاهن في جد ووقور قائلاً :

– بفضل الرب سيعيش إبنك ، إنه ضعيف ولكن أزمة السم قد ولت ، وقد بدأ تأثيره في الانحلال !

ثم أردف الكاهن قائلاً :

– من حسن حظ يحموز انه شرب من النبيذ المسمم أقل مما شرب أخوه . يبدو انه رشفه رشفاً ، بينما تجرعه سوبك جرعة واحدة

فتأوه احوتب وقال :

ـ هذا هو الفرق بينهما . يحموز دائماً هياب حذر ، متريث في كل شيء حتى في أكله وشربه .. أما سوبك ، فكان دائماً مفرطاً غير متبصر ، مع الأسف !

ثم سأل الكاهن :

ـ أكان النبيذ مسموماً حقاً؟

فأجابه هذا بقوله :

ـ لا شك في ذلك يا احوتب . فقد جرب مساعداي بقايا النبيذ في بعض الحيوانات فنفقت بعد حين .

ـ لكني شربت من النبيذ نفسه قبلهما بساعة فلم يحدث لي شيء ؟!

ـ لا شك انه لم يكن قد وضع به السم وقتئذ ، بل أضيف اليه فيما بعد .

فضرب احوتب كفاً بكف ثم هز مقبضه قائلاً :

ـ لا يجرؤ أحد حي ان يسمم أبنائي هكذا تحت سقف بيتي !. إن مثل ذلك محال ، لن يجرؤ احد حي على ذلك .

فاكتفى الكاهن بأن قال :

ـ إنك أدرى بذلك يا احوتب

ـ هناك قصة أريد ان تسمعها .

ثم صفق بيديه فجاء أحد العبيد ووقف أمامه فقال له :

ـ أحضر الغلام الراعي إلى هنا .

ولما انصرف العبد التفت إلى الكاهن وقال له :

ـ إن الغلام الراعي الذي بعثت في طلبه ليس كامل العقل وهو يفهم بصعوبة ما يقال له . ولكنه مع هذا له عينان يرى بهما جيداً ، ثم هو إلى ذلك شديد الإخلاص ليحموز لأنه يعامله بلطف ويعطف عليه .

وعاد الخادم ممسكاً بيده غلاماً نحيلاً شديد السمرة ، وعليه ثياب خلقة ، والخوف مرتسم على وجهه . فالتفت احوتب إلى الغلام وقال له في لهجة شديدة :

ـ يجب ان تتكلم وان تعيد الآن كل ما قلته لي .

فبدا التردد والوجل في وجه الغلام ، وعبثاً حاول احوتب حمله على الكلام بالتهديد والوعيد ، ثم جاءت ايزا تتوكأ على عصاها وقالت لابنها :

ـ إنك تخيفه يا ابني .

ثم نادت رنزنب وناولتها بعض الثمار لتعطيه للغلام ، فأعطته إياه ، ثم اقتربت ايزا من الغلام وهو ما زال يردد بصره خائفاً حائراً بينهم ، وأخذت بملاطفته لتشجعه على الكلام قائلة :

ـ لا تخف شيئاً ، وقل لنا ماذا رأيت حين مررت بباب الفناء أمس . هيا .. ماذا رأيت ؟

فهز الغلام رأسه ثم أطرق وهو يتمتم قائلاً :

ـ أين سيدي يحموز ؟

فقال له الكاهن بلطف :

ـ إن سيدك يحموز هو الذي يريد منك ان تقص علينا ما تعرفه . لا تخف لن يؤذيك أحد .

ـ إن سيدي يحموز رحيم بي . وأنا أفعل ما يريد .

ثم سكت ، فبدا على احوتب ان صبره قد نفد ، ولكن الكاهن نظر اليه نظرة تحثه على الصبر وفجأة بدأ الغلام يتكلم بشكل عصبي متقطع وهو ينظر حواليه ، وكأنه يخشى ان يسمعه أحد لا يراه . فقال :

ـ إن الحمار الصغير .. الذي يحميه « سيث » والذي يهوى الأذى ، جريت وراءه بالعصا .. فولج البوابة الكبيرة ودخل فناء الدار .. فنظرت من خلال البوابة إلى الدار .. ولم يكن أحد بالشرفة ولكن كان هناك دن النبيذ .. ثم

جاءت إمرأة .. وهي سيدة من سيدات الدار . إلى الشرفة قادمة من داخل الدار ، ومضت إلى دن النبيذ ، وبسطت كفيها فوقه .. وبعدئذ . بعدئذ . عادت إلى الدار .. كما أظن .. لا أدري .. لأني سمعت في تلك اللحظة وقع أقدام ، ونظرت فاذا بسيدي يحموز قد عاد من الحقل . ولذا مضيت أبحث عن الحمار .. وجاء سيدي يحموز إلى فناء الدار .

فصاح به احوتب :

ـ لماذا لم تحذره ؟ لماذا لم تقل شيئا ؟

قال الغلام :

ـ لم أعلم أن في الأمر شيئا .. إني لم أر إلا السيدة واقفة أمام دن النبيذ باسطة فوقه كفيها وهي تبتسم .. لم أر شيئا .

فسأله الكاهن :

ـ أتعرف السيدة ؟

ـ كلا . لا بد انها واحدة من سيدات الدار . إني لا أعرفهن .. إني أرعى الغنم في طرف الحقل . لقد كانت ترتدي ثوبا من كتان مصبوغ .

فقال له الكاهن وهو يمعن فيه النظر :

ـ ربما كانت خادمة .

فهز الغلام رأسه وقال :

ـ كلا . لم تكن خادمة .. فقد كان على رأسها شعر مستعار ، وكانت تلبس حليا .. والخادمة لا تلبس حليا .

فسأله احوتب :

ـ حلى ؟ أي نوع من الحلى ؟

فقال الغلام بلهفة وثقة وقد سيطر على ما كان به من خوف :

ـ ثلاثة خيوط من الخرز مع أسود ذهبية تتدلى منها .

فضربت ايزا بعصاها الأرض وصرخ احوتب صرخة مكتومة .

وقال له الكاهن :

ـ حذار ان تكون كاذبا يا ولد .

ـ لم أقل إلا الحق .

وعندئذ صاح يحموز من الغرفة المجاورة حيث كان راقداً :

ـ ما هذه الضجة ؟

فاندفع الغلام الى غرفة يحموز وصاح به :

ـ يا سيدي يحموز : إنهم يريدون ان يعذبوني .

فأدار يحموز رأسه بصعوبة على الوسادة وقال :

ـ كلا .. لا تؤذوا هذا الغلام .. إنه ســاذج ولكنه شريف .. عدوني بأنكم لن تؤذوه .

فقال أبوه :

ـ لا حاجة لأحد بايذائه . من الواضح انه قال ما يعرفه .. وما أحسبه قد اخترعه .. والآن إذهب يا ولد ولكن لا تعد إلى المرعى بل ابق على مقربة من هنا فلعلنا نحتاج اليك مرة اخرى .

فقام الغلام ونظر الى يحموز قائلا :

ـ أأنت مريض يا سيدي يحموز ؟

فابتسم يحموز بضعف وقال :

ـ لا تخف . إني لن اموت . اخرج الآن . واعمل كما أمرت .

فخرج الغلام مسروراً .ثم فحص الكاهن عيني يحموز وتحسس مدى جريان الدم في عروقه ونصح له بالنوم ، وخرج مع الآخرين إلى القاعــة الوسطى ، وهناك سأل احوتب :

ـ أتعرف من هي تلك السيدة التي وصفها الغلام ؟

فاوما برأسه ان نعم وبان الشحوب في وجهه .

وقالت رنزنب : إن نوفريت دون غيرها كانت ترتـدي ثوبا من كتان

مصبوغ ، لقد كان ذلك جديداً جاءت به من الشمال ، غير ان ثيابها كلها قد دفنت معها ؟

وقال أحوتب :

وخيوط الخرز الثلاثة والأسود الذهبية المدلاة منهـا ، فقد أعطيتها اياها وليس بالدار حلية مشابهة لها ، فقد كانت حلية غالية وغير مألوفة ، وجميع حليها قد دفنت معها ما عدا قلادة العقيق الأحمر .

ثم رفع يديه فقال :

– ما هذا الاضطهاد ؟ ما هذه النقمة ؟ ايليق ذلك من التي كنت اعاملها احسن معاملة ، واحنطها بكل مظاهر التكريم ، ودفنتها بالمراسم الجديرة بها ، ولم اضن بنفقة في سبيل ذلك ؟ فلماذا إذن ترجع هكذا من عالم الاموات لتضطهدني وعائلتي ؟

فقال الكاهن مرسو بجد :

– يبدو لي ان الميتة لا تريد السوء بك ، فان للنبيذ الذي شربته لم يكن به شيء .. فأي أفراد الأسرة آذى خليلتك ؟

– لقد ماتت التي أذتها أيضاً .

– أتقصد زوجة إبنك يحموز ؟

– اجل ..

وصمت أحوتب لحظة ثم قال :

– ما الذي يجب عمله يا أبي المبجل ؟ كيف نقاوم هذا الحقد ؟ لقد كان يوم نحس يوم جئت بتلك المرأة إلى بيتي !

فقالت كيت بصوت عميق ، وقد ظهرت عند الباب الموصل إلى جناح النساء :

– أجل ، كان يوم نحس حقاً !

وكانت عيناها مملوءتين بالدمع ، وملامح وجهها تدل على القوة والعزيمة ،

ثم عادت تقول بصوت أجش ينبىء عن الغضب :

– لقد كان يوم نحس حقاً يوم جئتنـا بنوفريت يا أحوتب لكي تقضي على أبرع أبنائك وأجلهم ، لقد قضت على ساتيبي ، ثم سممت سوبك ، واوشك يحموز أن يلقى حتفه أيضاً من يديها ، ترى من سيكون ضحيتها التالية ؟ أتراها تبقي على الأطفال وهي التي ضربت طفلي غنج ؟ يجب أن يعمـل شيء يا أحوتب !

فردد قولها

– أجل يجب أن يعمل شيء !

ونظر الى الكاهن نظرة توسل ..

فأومأ الكاهن برأسه وقال بهدوء :

– هناك وسائل كثيرة للخلاص يا أحوتب ، ومتى استوثقنا من الوقـائع أمكننا أن نبدأ ، على ان فكري قد اتجه إلى زوجتك المتوفاة ، عشايث ، لقد كانت من أسرة ذات نفوذ .. ويمكنها في عالم الموتى أن تثير قوى لتدافع عنك وعن أسرتك ضد نوفريت فتفقد هذه قوتها ، يجب أن نتباحث معاً أنا وأنت .

فضحكت ضحكة قصيرة وقالت :

– لا تطيلا البحث ، إن الرجال لا يتغيرون ، حتى الكهنة منهم ، وكل شيء عندهم يجب ان يعمل بعد تريث ووفق الأصول ، ولكني أقول لكمـا : هيا أسرعا وإلا فستحل وفيات جديدة تحت سقف هذا المنزل .

واستدارت وذهبت .

فتمتم أحوتب قائلاً :

– إمرأة بارعة ، مخلصة لأولادها ، وزوجة تعرف واجباتها نحو زوجها ! ولكن سلوكها أحياناً ليس كما يجب نحو رب الأسرة ، وبالطبع أنا أسامحها في مثل هذه الظروف ، فإننا جميعـاً في غير اطوارنا ، ولا نكاد نعرف

ماذا نحن فاعلون ..

وهنا قالت ايزا :

– إن بعضنا يعرف ما هو فاعله ..

فنظر اليها أحوتب نظرة انزعاج ..

وتأهب الكاهن للخروج ، فخرج احوتب معه إلى الشرفة يتلقى منه التعليمات لأجل العناية بالمريض .

وبقيت ونزنب في مكانها .. فنظرت الى جدتها نظرة تساؤل .. وقالت لها :

– فيم كنت تفكرين يا جدتي ؟

– إن هذه الدار تحدث بها أشياء غريبة ، فلا بد لأحد منا أن يفكر ؟

– إنها أشياء فظيعة .. إنها تخيفني ..

– وتخيفني أنا أيضاً ، ولكن لسبب آخر .

وأزاحت شعرها المستعار بحركتها المعتادة .

وقالت لها رنزنب :

– ولكن يحموز سينجو من الموت ، انه سيعيش .

فأومأت إيزا برأسها موافقة وقالت :

– قد ينجو يحموز لأن طبيباً بارعاً ادركه في الوقت المناسب ، وقد لا يكون حسن الحظ هكذا دائماً .

فسألتها رنزنب :

– اتظنين ان حوادث اخرى ستقع هنا ؟

فأجابتها العجوز :

– أظن ان يحموز وانت وإيبي .. وربما كيت ايضا ، يجب ان يكونوا على حذر مما يأكلونه ويشربونه .. ويجب ان يجربه اولاً

احد العبيد .

– وأنت يا جدتي ؟

فردت ايزا بابتسامة ساخرة قائلة :

– إنني يا رنزنب إمرأة عجوز ، وأنا أحب الحياة كما لا يحبها إلا العجائز ، وأستمتع بكل ساعة فيها وبكل دقيقة باقية لي وأنا دونكم جميعا أمامي أحسن الفرص للحياة ، لأني سأكون أكثر حذراً من أي أحد منكم .

– وأبي ؟ لا شك ان نوفريت لا تريد السوء بأبي ؟

– أبوك ؟ لا ادري ، اني لا اقدر بعد ، ان اعرف عن يقين ، وغداً حين اكون قد قبلت الأمر على وجوهه ، يجب ان اتحدث مرة اخرى مع ذلك الغلام الراعي ، إن في قصته شيئا .

وقطعت كلامها عابسة ، ثم تنهدت وقامت مستندة إلى عصاها ، عائدة إلى غرفتها .

أما رنزنب فقد ذهبت إلى أخيها يحموز ، وكان نائما ، فانسلت إلى غرفته بهدوء ..

وبعد لحظة ذهبت مترددة إلى الجناح الخاص بكيت ، ووقفت برهة بالباب دون ان يلحظها احد ، وكانت كيت وقتئذ تغني لأحد أطفالها كي ينام . وكان وجهها ينم عن السكينة ، وبدا عليها انها قد عادت إلى حالتها الطبيعية ، حتى ان رنزنب ساءلت نفسها :

« هل كانت المأساة التي حدثت في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة حلما من الأحلام .

وعادت رنزنب ببطء إلى جناحها ، فوجدت على منضدة هناك أوعية المعاجين الخاصة بها ومعها علبة الحلى الصغيرة التي كانت لنوفريت .

اخذت رنزنب العلبة ووقفت تنظر اليها وهي في كفها .. إن نوفريت

قد لمستها ، وقد مسكتها ، فهي تخصها .

وعاد شعور الشفقة يغمرها ومعه شعور عجيب بالفهم والادراك من جديد لقد كانت نوفريت تاعسة ..

لعلها إذ كانت تمسك هذه العلبة بيدها قد حولت شقاءها حقداً وبغضا للأسرة كلها . والآن بعد ان ماتت لم يخف بغضها لهم .. ولا تزال تريد الانتقام ؟

وبحركة آلية فتحت العلبة وحلت الخيط من حول إزارها . وكان بها حبات العقيق والخرز المكسور ، وشيء آخر .

ودق قلبها دقا عنيفا وهي تخرج من العلبة قلادة من حبات ذهبية تدلت منها اسود من الذهب .

- ٩ -

فزعت رنزنب إذ وجدت القلادة ، فأعادتها تواً إلى العلبة وأغلقتها وربطت الخيط حول إزارها . وهدتها غريزتها الى ان تخفي لقيتها هذه عن الجميع ، حتى انها نظرت خلفها لتستوثق من ان احداً لم يرها . ولم تنم تلك الليلة إلا لماما .

وما طلع الفجر حتى كانت قد اعتزمت ان تكشف امر تلك القلادة ، لايمانها بأنها لا تستطيع ان تحمل وحدها عبء هذا الكشف الرهيب

وكان اول ما فعلته في الصباح ان اخرجت القلادة ذات الأسود الذهبية من العلبة وخبأتها في ثنايا ثوبها .

وكانت قد قررت ان تبحث عن حوري لتطلعه على امر القلادة ذات الأسود الذهبية . ولكنه الآن لا بد ان يكون مشغولاً مع الكهنة في معبد ايزيس ، فمن العبث ان تحاول لقاءه قبل ان يفرغ من مهمته .

وحدثتها نفسها بأن تلجأ إلى ابيها ، ولكنها هزت رأسها رافضة هذا الخاطر ، فإن ما كانت تعتقده وهي طفلة في قدرة ابيها قد زال الآن ، وقد ادركت انه في وقت الشدة ينتابه الضعف والخور .

ولولا مرض يحموز للجأت اليه واخبرته بالأمر ؛ وان كانت تشك في انه سيفيدها بأي نصح عملي ؛ بل لعله كان يصر على عرض الأمر على ابيه .

على انها لم تكن تريد ان تلتمس رأي احد غير حوري ، فإن هذا يعرف عادة ما ينبغي عمله ، واكبر الظن انه سيأخذ منها القلادة ، ويأخذ معها ما بها من قلق وحيرة ، وسينظر اليها بعينيه اللتين يشعان جداً وعطفا ، واذ ذاك تشعر هي بأن همومها قد انتهت ؟

ولاح لها ان تخبر كيث ، ولكنها ما زالت متعبة غبية ..

كما لاح لها ان تخبر ايزا ..

ثم آثرت ان تخبر كامني .. لأنها تستطيع عندئذ ان تراقب وجهه جيداً فترى كيف يفكر ؟ وكيف تتحول ملامحه من التحدي المرح الى الاهتمام ثم الى الخوف من أجلها ؟

ولكن .. لماذا يكون ذلك من اجلها هي ؟ اليس من الجائز ان يكون من اجل . صاحبة تلك القلادة ؟ ان نفسها تحدثها كثيراً بأن نوفريت وكامني كانا اوثق رابطة مما كانا يظهران ..

وهنا شعرت بالاضطراب فلم تستطع متابعة التفكير ، اجل ان عيني كامني ليستا كعيني حوري تنبئان عن الأمن والشفقة ، ولكنهما عينان تشعان بالطلب والتحدي ..

وشعرت بالدم يصبغ خديها من هذه الخواطر .. ولكنها اعتزمت الا تخبر كامني بأمر قلادة نوفريت .

وعادت فآثرت ان تخبر به ايزا ، فإن هذه قد أثارت اعجابها امس ، ثم هي برغم بلوغها الكبر تقدر الوقائع تقديراً عمليا صحيحا لا يتاح لغيرها من افراد الأسرة .

ولم تكد رنزنب تخبر جدتها بأمر القلادة ، حتى نظرت هذه حولها ووضعت اصبعا على شفتيها محذرة اياها خطر الاستمرار في هذا الحديث .

ثم اخرجت رنزنب من طيات ثوبها القلادة ووضعتها في يد ايزا ، فأدنتها

هذه من عينيها ثم خبأتها في ثنايا ثيابها ، وقالت بصوت خافت :

ـ لا تتحدثي عنها بعد ، إن من يتكلم في هذه الدار تسمعه مئات الآذان لقد رقدت معظم الليلة ساهرة أفكر وهناك شيء كثير من الضروري ان يعمل .

ـ لقد خرج ابي وحوري إلى معبد إيزيس ليتباحثا مع الكاهن مرسو بشأن صياغة الالتماس الذي يقدم لأمي لكي تتدخل لحمايتنا .

ـ إني أعرف ذلك ، حسناً ، لندع أبا يشغل نفسه بأرواح الموتى ، أما أنا فإن افكاري تحوم حول أشياء من هذا العالم ، ومتى عاد حوري فاحضريه الي فهناك امور يجب ان تقال وأن تبحث ، وانا اثق بحوري .

ـ إن حوري سيعرف ما ينبغي عمله .

ـ إنك كثيراً ما تذهبين إلى المقبرة ، اليس كذلك !

فأومأت رنزنب برأسها موافقة وأجابت :

ـ أجل ، فمن هناك أرى النيل ، وأرى مصر . وأبصر الرمال كيف يتغير لونها ، وأبصر الصخور كذلك .. وهناك أترك لنفسي العنان ولا يقطع حوري سير تفكيري .. وأحيانا انظر فأراه يرقبني فيبتسم كلانا ، اجل اني احس السعادة هناك .

فقالت لها جدتها :

ـ ما أسعدك يا عزيزتي ، لقد وجدت السعادة المستقرة في داخل الانسان.

ـ وأنت يا جدتي ، ألم تكن حياتك سعيدة .

ـ معظمها ، ولكني الآن وقد بلغت من الكبر عتيا ، صرت أجلس وحدي كثيراً وأمشي بمشقة ..

إن هذه الأشياء قد بقيت لي بعد ان ذهب الكثير ومعظم الأبناء الذين أحببتهم قد ماتوا ، ولقد كان أبوك ـ أعانه الرب رع ـ دائما أحمق ، وكنت أحبه حين كان طفلا يحبو ولكنه الآن يضجرني بتظاهره بالقوة والمعرفة .. وبين أحفادي احبك انت . ولمناسبة الكلام عن الأحفاد اين ايبي ؟ اني لم

اره امس ولا اليوم !

– إنه مشغول بالاشراف على خزن الغلال .

– إن ذلك سيرضي غروره ، وسوف يختال مزهواً بخطر شأنه .. حين يعود إلى البيت لتناول الطعام أخبريه بأن يأتي إلي ، وفيما عدا ذلك عليك بالسكوت والكتمان .

* * *

ووقف إيبي بباب غرفة جدته مبتسماً متغطرساً ، وقد وضع زهرة بين اسنانه البيضاء ، وبدا عليه الغرور والابتهاج ، ثم قال لها :

– هل طلبتني يا جدتي ؟

– نعم ، اريد ان تسمح لي بلحظة من وقتك الثمين ..

فلم يدرك ايبي ما في لهجتها من سخرية وقال :

– الحق إني جد مشغول اليوم فان علي ان اشرف على كل شيء .

– إن صغار بنات آوى عالية النباح ؟

– لا شك ان لديك ما تقولينه لي غير هذا !

– اجل عندي كثير أقوله لك : فأول كل شيء .. إن هـــذا البيت في حداد ، وجثمان اخيك سوبك لا يزال في أيدي المحنطين ، ولكني ارى وجهك مستبشراً وكأننا في يوم عيد !

فقطب وجهه وقال :

– إنك لست مرائية يا إيزا ، أفتريدين ان اكون مرائياً ؟ انك تعلمين علم اليقين انه لم يكن ثمة حب بيني وبين اخي ، فقد كان يفعل كل ما يستطيع لمضايقتي وإزعاجي ، وكان يعاملني وكأني طفل ، ويعهد الي في المهام الصغيرة المزلة في الحقل ، وكثيراً ما كان يسخر مني ، ولما اراد ابي ان يشركنا نحن

أبناءه الثلاثة معه ، أغراه بألا يفعل ..

– لماذا تعتقد ان اخوك هو الذي اغراه بذلك ؟

– لقد قال لي كامني ذلك !

فرفعت إيزا حاجبيها وامالت شعرها المستعار جانباً ، ثم قالت :

– كامني ؟ كامني حقاً ؟ إن هذا يهمني .

فعاد ايبي يقول :

– نعم ، قال لي كامني انه علم بذلك من حنت ، وهذه كما نعلم جميعاً لا يخفى عليها شيء ..

– ومع هذا فقد أخطأت حنت في هذا الاتهام، لا شك ان يحموز وسوبك كليهما كانا يريان انك اصغر سناً من ان تدخـل في الشركة ، ولكني أنا التي أقنعت أباك بعدم ادخالك فيها.

فنظر اليها الفتى بدهشة وقال :

– أنت يا جدتي ؟ ولماذا فعلت بي ذلك ؟ وما شأنك فيه ؟

– إن شؤون اسرتي هي شؤوني .

– هل أصغى أبي اليك ؟

– لم يقتنع في البداية ، ولكنني سألقنك درساً يا طفلي الجميل ، فاعلم إذن ان النساء يعملن باللف والدوران ، وهن يتعلمن كيف يستغللن ضعف الرجال ان لم يكن ذلك من غرائزهن .

فحملق إيبي فيها هنيهة ، ثم ضحك وقال لها :

– أنت ماكرة يا إيزا برغم كبر سنك ، لا شك انت وانا قـــد انفردنا بالذكاء في هذه الأسرة .

– سأكون حذرة .. ولكن إزاء نصيحتك هذه انصح لك بأن تكون على حذر ، لقد مات احد أخويك وأوشك الثاني ان يموت ، وانت ايضاً ربمـــا أعدت لك نوفريت النهاية نفسها ؟

فضحك ايبي بازدراء وقال

– اني لا أخشى ذلك .

وسألته جدته :

– ماذا يدور بخلدك يا ايبي

فأجاب بقوله :

– إن لي رأيي ، وأؤكد لك اني لا يزعجني أي شيء يمكن أن تصنعه روحها ..

وهنا ارتفعت صيحة من خلف ، فالتفت وإذا بحنث قد جاءت تقول :

– ايها الغلام الأحمق ، أيها الطفل الطائش ، إنـك تتحدى الأموات .. وبعد ان ذقنا ما ذقناه منها ما زالت تصر على ألا تحمل اية تميمة للوقاية .

فضحك إيبي وقال :

– وقاية ؟ اني سأقي نفسي ، ابعدي من طريقي يا حنث فإن أمامي عملا أؤديه .

ثم دفع حنث بيده فأزاحها جانباً ، وخرج من الغرفة ، فأخذت حنث تنوح وتندب ، ولكن ايزا اسكتتها قائلة :

– اصغي الي يا حنث ، ان ايبي قد يعرف ما هو فاعله ، وقد لا يعرف ذلك ، فإن مسالكه غريبة جداً ، ولكن اصدقيني القول : هل قلت لكامني ان سوبك هو الذي حرض أبوه على عدم ادخال ايبي في الشركة ؟

– ان عندي من العمل المتواصل في المنزل ما لا يترك لي وقتا لنشر أنباء بين الناس ، ولا سيما كامني بالذات ..

– حقا .. ولكن اذكري يا حنث ان اللسان يكون أحيانا سلاحا خطراً وقد يحدث الموت . وقد يحدث اكثر من وفاة واحدة ، ولعـل لسانك يا حنث لم يكن سببا في موت احد .

– لماذا تقولين ذلك لي انا يا ايزا ؟ وما الذي يجول بخاطرك ؟ اني لا اقول

لأحد كلمة اخشى ان يسمعها الناس جميعا ، اني مخلصة للأسرة كلها ، وافدي كل فرد من افرادها بنفسي ، ولكنهم لا يقدرون اخلاصي ؟ لقد وعدت امهم العزيزة ..

فقطعت ايزا كلامها قائلة :

– ها قد جاء السمان مطهيا بالكرات والكرفس ، ان رائحتـــه شهية والآن ما دمت بهذا الاخلاص لنا ، فهيا ذوقيه اولاً حتى استوثق من انه ليس مسمما ..

فارتاعت حنث قائلة :

– مسمم ؟ كيف تقولين ذلك ؟ لقد طهي في مطبخ الدار فكيف يسمم ؟

– لا بد ان يذوقه احد قبل ان آكله . هيا افتحي فاك . أهـــو لذيذ ؟ أليس كذلك .. اني اراك مصفرة الوجه . ألم ترتاحي الى هــــذه النكتة ؟ ما احسبك قد ارتحت اليها ، ها . ها .. ها ..

وما لبثت ان استعادت سمت الجد واقبلت على لون الطعام الذي تحبه .

- ١٠ -

انتهى التشاور في المعبد ، ووضع نص الالتماس ثم عدل ، وقد قام بوضعه حوري واثنان من كتبة المعبد ، وأخيراً اتخذت الخطوة الأولى ، واخذ كبير الكتبة في تلاوة الالتماس ، وكان فيه ما يلي :

« إلى الروح الطاهر السامي روح عشايت :

« انه من اخيك وزوجك احوتب ، هل نسيت الأخت اخاها ؟ هل نسيت الأم الأطفال الذين ولدتهم ؟ ألا تدري عشايت ، فضلى النساء ، ان روحاً شريراً يهدد اولادها ؟ لقد انتقل ابنها سوبك إلى اوزيريس مسمماً ؟

« لقد احطتك في حياتك بكل تكريم ، ومنحتك الحلى والثياب ، والأدهنة والعطور ، والزيوت لأجل أعضائك ، وكنا نأكل معاً احسن الوان الطعام ، وكنا نجلس معاً في امان ومودة إلى مائدة اعدت لنا ، ولما مرضت لم اضن بمال في سبيل علاجك ، وجئتك بطبيب بارع ، ثم دفنت بكل تكريم وبالمراسم الواجبة وبكل شيء يلزمك في حياتك الجديدة ، من خدم وثيران ومن طعام وشراب ، ومن كساء وحلى ، وقد حزنت عليك سنوات عديدة ، وبعد سنوات طويلة ، اتخذت لي خدينة كيما اعيش كما ينبغي لرجل لم يبلغ الكبر بعد .

« وهذه الخدينة تؤذي الآن ابناءك ، الا تعلمين ذلك ؟ ربما

كنت تجهلينه ، ولكن لا شك في ان عشايت إذا علمت ذلك فانها تبادر إلى إغاثتهم ..

« أم ترى تعلم عشايت ، ولكن الشر مستمر لأن الخليلة نوفريت قوية بسحرها الأثيم ؟ ولكن هذا بالتأكيد ضد مشيئتك يا عشايت يا فضلى النساء ، لذلك اذكري ان لك في ميدان الهبات أقارب عظاماً واعواناً اقوياء ، ومنهم ابيي العظيم النبيل ، كبير سقاة الوزير ، فاطلبي معونته ، وايضاً خالك مربتاح العظيم القوي حاكم الاقليم ، فاخبريه بالحقيقة المؤلمة ، ودعي الأمر يرفع اليه ليقضي فيه ، وادعي الشهود ليشهدوا على نوفريت بأنها قد أتت ذلك الأثم ، وليجر العدل مجراه وليحكم على نوفريت بألا تأتي شراً جديداً لأهل هذه الدار ..

« آه يا عشايت الفاضلة .. إذا كنت متكدرة من أخيك احوتب ، لأنه اصغى إلى التحريض السيء من تلك المرأة وتوعد أبناءك بأن يظلمهم فاذكري انه ليس وحده الذي يقاسي الآن ، بل كذلك أبناؤك ، اغفري لأخيك احوتب اي شيء فعله ، من اجل ابنائك »

وسكت كبير الكتبة عن القراءة فأومأ الكاهن مرسو برأسه موافقاً وقال :

– انه مكتوب باسلوب حسن ، واظن انه لم يترك شيء ..

ثم نهض احوتب قائلاً :

– شكراً لك ايها الأب المبجل . ان هبتي ستصل اليك قبل غروب شمس غد ، وهي مؤلفة من ماشية وزيت وكتان ، الا نحدد اليوم الذي نحتفل فيه بوضع وعاء هذا الخطاب في غرفة الهبات بالمقبرة ؟

فقال الكاهن :

– ليكن بعد ثلاثة أيام ، ويجب ان يحفر نص الخطاب على الوعاء وأن تعد المعدات للمراسم اللازمة .

- كما تشاء ، وعسى الا يحدث سوء جديد ؟

- إني اقدر قلقك يا امحوتب ، ولكن لا تخف ، إن ررح عشايت سوف يجيب هــذا الالــتماس ، ولأقاربها سلطة ونفوذ ، فهم في مركز يقضون فيه بحق حيث يلزم القضاء ..

فأومأ امحوتب موافقا وقال :

- عسى ان يكــون ذلك وفق إرادة إيزيس شكراً لك يا مرسو ، وشكراً لك ايضا على عنايتك بابني يحوز .

ثم التفت إلى حوري وقال له :

- هيا بنا .. إن امامنا اعمالاً كثيرة في المنزل ، وان عشايت الفاضلة لن تخذل اخاها المنكوب ..

* * *

دخل حوري صحن الدار ، حاملا لفائف ورق البردى ، وكانت رنزنب تنتظره ، فجاءت من البحيرة تجري صوبه وتناديه :

- حوري . حوري ..

فوقف حتى أدركته فقال لها :

- ماذا تريدين يا رنزنب ؟

- هيا معي إلى جدتي ؟ لقد كانت تنتظرك ، وهي تطلبك ..

- حسنا ، ولكن ابوك قد يكون في حاجة الي الآن ؟

- إنه الآن مشغول بالحديث مع ايبي

- إذن سأضع هــذه اللفائف جانبا ، ثم انجز بعض الشؤون العاجلة وآتي معك ..

وبدا على إيزا السرور حين جاء اليها حوري مع رنزنب ..

وقالت لها هذه :

- هذا حوري يا جدتي ، لقد أحضرته اليك فوراً .

- حسنا ، هل الجو حسن في الخارج ؟

فأجابتها متعجبة :

- اظن ذلك ..

- إذن .. اعطيني عصاي ، سأمشي قليلا في صحن الدار .

وكانت ايزا لا تغادر المنزل إلا نادراً ، ولذا دهشت رنزنب ، وقــادت جدتها وهي متأبطة ذراعها ، وعبرا القاعة الوسطى الى الطنف ..

ثم قالت لها :

- انجلس هنا يا جدتي ؟

- كلا يا طفلتي بل نمشي الى البحيرة .

وكانت مشيتها بطيئة ، ولكنها برغم عرجها كانت قوية لا يبدو عليهــا التعب . ونظرت حواليها ثم اختارت بقعة على شاطيء البحيرة ، نمت فيهــا الأزهار وقامت شجرة جميز ظليلة . ولما جلست قالت بارتياح :

- ها هنا نستطيع أن نجلس وان نتكلم دون ان يسمعنا احد .

فقال لها حوري :

- انك حكيمة يا ايزا .

- ان ما سنقوله هنا الآن يجب ان يبقى في طي الكتمان لا يعلم به احــد غيرنا ، اني اثق بك يا حوري فأنت معنا منذ كنت طفلا صغيراً ، وقد عهدنا فيك دائما الاخلاص والعقل والكتمان . ورنزنب هي احب احفادي الى قلبي ولا اريد ان ينالها اي اذى .

- لن يصيبها اذى ..

ولم يرفع حوري صوته وهو يقول ذلك ، الكن لهجته بعثت الطمأنينة في قلب ايزا فقالت له :

— اصبت يا حوري . انك تقول ذلك في هدوء ورزانة ، شأن الرجل الذي يعني ما يقوله ، والان خبرني : ماذا دبر اليوم ؟

فذكر لها حوري ما تم من كتابة صيغة الالتماس ، واصغت اليه في اهتمام حتى فرغ من حديثه فقالت :

— حسنا .. والان اصغ الي يا حوري وانظر الى هذه ..

ثم اخرجت من طيات ثوبها القلادة ذات الأسود الذهبية واعطته اياها ، بينما التفتت الى حفيدتها قائلة لها :

— اخبريه يا عزيزتي اين وجدت هذه .

ولما انتهت الفتاة من كلامها ، عادت ايزا فسألته :

— ما رأيك يا حوري ؟

فسكت هنيهة ثم قال :

— انك كبيرة السن ذات حكمة ، فما رأيك انت ؟

— يعجبني منك انك لا تعجل بالحكم على الأمور الا اذا كانت مؤيدة بالوقائع ، انك منذ البداية كنت تعرف كيف لقيت نوفريت حتفها ..

— لكني لم اكن على يقين من هذا الأمر ..

— هذا صحيح ، وليس لدينا حتى الان ما يحملنا على يقين منه . ولكن ها هنا على البحيرة وفيما بيننا نحن الثلاثة ، يمكن ان نذكر ما أثار شكوكنا ثم لا نشير اليه ثانية ، والان عندي اكثر من تعليل المآسي التي وقعت : فمثلا قد يكون الغلام الراعي صادقا فيما رواه .. اعني ان ما رآه كان شبح نوفريت حقا عاد من عالم الموتى للانتقام لنفسها فوق ما انتقمت بايجاد الحزن والحداد في اسرتنا والكهنة يؤيدون امكان وقوع هذا ، ونحن نعلم ان الأرواح الشريرة تسبب المرض احيانا . ولكن يبدو لي ، وانا امرأة عجوز لا اميل الى اعتقاد صحة ما يقوله الكهنة ، ان هناك احتمالات اخرى .

— ما هذه الاحتمالات ؟

— لنفرض ان نوفريت قتلت بيد ساتيبي ، وان هذه بعد حين من ذلك ظهر لها شبح نوفريت ، فأدى بها الخوف وذكرى الجرم الذي ارتكبته الى ان سقطت تلك السقطة المميتة . هذا واضح وضوحا كافيا . ولنفرض بعد ذلك ان احداً من الناس اراد ان يقضي على يحموز وسوبك ، فاعتمد على تصديق الجميع خرافة ظهور شبح نوفريت لكي ينسب اليه ما يقع من جرم جديد ..

وهنا ابتدرت الفتاة جدتها سائلة :

— لكن يا جدتي .. من ذا الذي يريد ان يقتل يحموز أو سوبك ؟

— لا أحد من الخدم فإنهم لا يجرؤون على ذلك . وعلى هذا تضيق دائرة الاختيار أمامنا .

— أتعنين يا جدتي ان يكون المتهم واحداً منا ؟

— إسألي حوري انك ترينه لا يعترض على ما قلته ؟

فالتفتت رنزنب اليه متسائلة . لكنه اكتفى بان هز رأسه وقال :

— إنك يا رنزنب صغيرة السن كثيرة الثقة بالناس ، إنك تحسبين ان كل إنسان تعرفينه وتحبينه هو في الحقيقة كما يظهر لك . ولا تعرفين خبايا النفس البشرية والشر الذي يمكن ان تكنه .

فعادت تسأله :

— لكن من هو ؟ ألا تصرح لي باسم من يمكن أن يوجه اليه مثل هذا الاتهام ؟

فقالت لها جدتها :

— لنعد الى تلك القصة التي قصها الغلام الراعي .. لقد رأى امرأة في ثوب من الكتان المصبوغ ، وتلبس قلادة نوفريت ، فإذا لم يكن ذلك شبحا فمعنى ذلك انه ابصر امرأة تحاول ان تظهر في هيئة نوفريت . ربما كانت كيت ، وربما كانت حنت ، وربما كنت انت يا رنزنب او لعلها كانت انسانا

آخر مرتديا ثيابا وشعراً مستعاراً لامرأة ..

وعلى اية حال ، هذه فروض واحتمالات لا اكثر ، فاسكتي ودعيني اتكلم اما الاحتمال الآخر فهو ان الغلام كان كاذبا وان قص قصة لقنه اياها احد من الناس وفي هذه الحالة لا بد ان يكون هذا الشخص ممن له سلطان على الغلام ويمكن القول بأن الغلام لضعف عقله ربما كان قد نسي او حرف شيئا مما أمر بأن يذكره . ولن نعرف الحقيقة الان لأن الغلام قد قتل .. ومقتله نفسه يدعو الى التأمل . فهو يحملني اميل الى الاعتقاد بأن الولد قد قص قصة أمليت عليه ، ولو انه حقق معه تحقيقا دقيقا . كما كان مقرراً ان يحدث اليوم . فإن قصته كانت تنهار ، وكان من السهل بقليل من الصبر اظهار ما فيها من كذب .

فسألها حوري :

– إذن انت تحسبين ان بيننا قاتلا ؟

– اجل . وما رأيك انت؟

– انا ايضا اظن ذلك .

فرددت رنزنب بصرها بينهما في خوف ظاهر ..

ثم قال حوري :

– ولكن البواعث ليست واضحة امامي .

فقالت ايزا

– انا اوافقك على ذلك ، وهذا ما يزعجني ،ولا ادري من هو المهدد بالخطر بعد ذلك ؟

فقالت رنزنب بلهجة الشك :

– ولكن . اليس غريبا ان يكون مقاتل واحداً منا ؟

فهزت ايزا رأسها آسفة وقالت :

– اجل يا رنزنب ، واحد منا .. حنث او كيت او ايبي او كامني او

امحوتب نفسه .. اجل ، او ايزا او حوري ..

ثم ابتسمت واردفت :

– وربما رنزنب .

فقال حوري :

– صدقت يا ايزا . يجب ان ندخل انفسنا ايضا في الدائرة .

فسألتها رنزنب :

– ولكن لماذا ؟

فقالت العجوز :

– لو عرفنا السبب لعرفنا كل الحقيقة . على اننا نستطيع ان نسير في سبيلها على ضوء ما حدث .. اننا نعلم ان سوبك لحق بيحموز على غير انتظار وهو يحتسي النبيذ ، فمن المؤكد اذن ان الجاني ، ايا كان ، اراد ان يقتل يحموز . ولكن ليس من المؤكد انه اراد ايضا قتل سوبك .

فقالت الفتاة متسائلة :

– ومن الذي يريد أن يقضي على يحموز ؟ ان يحموز اقلنا اعداء فإنه دائما هادىء شفيق .

فقال حوري

– اذن . فمن الواضح ان الباعث لم يكن هو البغض والحقد ، فإن يحموز ليس من طراز الرجال الذين يعادون الناس ؟

فقالت ايزا :

– كلا .. ان الباعث اكثر غموضا من ذلك ، فإنه إما أن يكون عداوة للأسرة كلها . واما ان يكون الجشع الذي تحذرنا منه وصايا (بتاحوتب) اذ يقول : « ان الجشع جماع الشرور والاثام » .. هذا ما اراه .

فقال حوري :

– اني أرى متجه أفكارك .. ولكن لكي نصل الى نتيجة يجب ان نتنبأ

بالمستقبل ..

– اذن صور لنا يا حورى ما يمكن ان يحدث

فسكت حورى لحظة ثم قال :

– لو ان يحموز مات كما أريد له ، فمن هم الذين يفيـدون من موته ؟ انهم ولا شك شركاؤه في ثروة امحوتب وفي مقدمتهم سوبك وايبي ، وصحيح ان بعض الميراث كان ينتقل إلى أبنـاء يحموز نفسه ، ولكن إدارة الأملاك كان يعهد فيها إلى أيدي غيرهم ..

ولعل سوبك كان يصبح اكبر مستفيد من موت يحموز . إذ يعهد اليه في القيام بمهام (كاهن – كا) في غياب أمحوتب أو بعد وفاته ، ولكن سوبك لا يمكن أن يكون القاتل ، لأنه هو نفسه شرب من النبيـذ المسمم جرعات كبيرة ، قضت عليه .. ولذا فإني أقدر ان وفاة يحموز وسوبك لا تفيد إلا شخصاً واحداً هو . في الوقت الحاضر كما اظن .. ايبي دون غـيره ..

فقالت ايزا :

– إني أقرك على ذلك ، ولكن ايبي كما نعلم جميعاً ما زال صغير السن .. كما انه قليل الصبر .. انه يعتقد ان تنفيذ رغبـاته أهم شيء في الوجود ، وهو يكن الحقد والضغينة لأخويه ويظن انه ظلم إذ لم يدخـل معهما في الشركة ، ويظهر أيضاً أن كامني قال له أشياء بعيدة عن الحكمة ..

فصاحت رنزنب متسائلة :

– كامني ؟

ثم احمرت وجنتاها من الخجل وعضت شفتيها ، فالتفت اليها حوري ونظر اليها تلك النظرة النافذة الجادة التي كثيراً ما أحرجتها .. ومدت إيزا عنقها إلى الأمام قائلة

– أجل كامني .. اما ان حنت أوحت اليه أو لم توح فهذا شيء آخر .

والواقع ان إيبي طموح متكبر وانه كان كارهاً لسلطان أخويه . ويعد نفسه اذكى أفراد الأسرة كما ذكر لي

فسألها حوري :

– هل قال لك ذلك ؟

– أجل وقد جاملني بأن أشركني معه في ميزة الذكاء هذه ..

وهنا قالت رنزنب بلهجة الشك :

– أتظنان أن إيبي قد تعمد أن يقتل يحموز وسوبك بالسم ؟

فقالت إيزا

– إن ذلك ليس سوى احتمال ، إننا نسرد فروضاً لا اكثر وليست أمامنا براهين ، وهناك منذ بداية العالم رجال قتلوا اخوتهم وهم يعلمون ان الآلهـة تكره مثل هذا القتل ، لكنهم كانوا مدفوعين بالطمع والبغضاء ، وإذا كان إيبي قد فعل شيئاً من هذا القبيل ، فلن نجد دليلا عليه لأنه في الحق بارع !

فأومأ حوري برأسه موافقاً ..

واستطردت ايزا قائلة :

– هذه كلها فروض كما قلت لكمـا .. وعلى هذا الأساس سأمضي في بحث موقف كل فرد من أهل هذه الدار ، وسأخرج الخدم من دائرة البحث لأني لا أعتقد ان أحداً منهم يجرؤ على مثل هذه الجرائم ، ولكني لا أخرج حنت !

فقالت رنزنب :

– حنت ؟ ولكنها مخلصة لكل فرد منا ، ولا تفتأ تقول ذلك ؟

فقالت إيزا

– من السهل إظهار الأكاذيب بمظهر الحقائق .. لقد عرفت حنت منذ سنوات عديدة ، وحينما جاءت إلى المنزل وهي شابة مع امك كانت فقـيرة بائسة وكانت لهذا تدعي الاخلاص لها ، ولكني راقبتها وهي تنظر إلى أمك

إذ تتنقل في ارجاء الدار ، وأؤكد لك يا رنزنب ان نظراتها لم تكن تنم عن حب وإخلاص بل كان ملؤها الحقد والحسد . ومن ثم ترينني أرتاب فيما تزعمه من الاخلاص لكم جميعاً .

عندئذ قال حوري :

– خبريني يا رنزنب . أتشعرين بمحبة لحنث ؟

– كلا .. اني لا أحبها وكان ضميري دائماً يؤنبني على ذلك ..

ثم تنهدت وقالت :

– لكن ابي يثق بها ..

فقالت ايزا

– إن إبني أحق وحنث تتخذ الملق وربما تكون مخلصة له حقـاً واني لأحسبها كذلك أحياناً .. ولكنها على التحقيق لا تخلص لأي أحد آخر في هذه الدار ..

فأومأ حوري برأسه موافقاً وقال :

– هناك فساد ينبعث من الداخل وقد حدثت رنزنب عنه يوماً .

فأجابته :

– الواقع إني لم أفهم ما قلته يومئذ .. ولكني بدأت أحسن الفهم الآن .. لقد بدأ الفساد بقدوم نوفريت .. وكنت حينذاك ارى ان كل فرد هنا لم يعد كما كنت أحسبه فروعني هذا التغير .. والآن اشعر بأن هذا يملؤني رعباً .

ثم استطردت ايزا فقالت :

– وهناك أيضا كيت .

فقاطعتها رنزنب قائلة :

– كيت ؟ هذا شيء غير معقول .. بل يستحيل ان تقتل كيت سوبك زوجها ..

– لا شيء غير معقول . هذا على الأقل ما تعلمته في حياتي . إن كيت

امرأة بالغة الغباوة .. وكيت تعيش في عالم صغير مكون منها ومن أطفالها . وليس بعيداً ان يلوح لها ان في إزاحة يحموز من العالم ما يزيد من ثروة أبنائها فإذا زال يحموز من الوجود . فإن امحوتب لا يجد بداً من الاعتماد على سوبك . نعم اعتقد ان كيت في غباوتها قد تتصور المسألة على هذا النحو ..

فأحست رنزنب برجفة تعتري جسدها فسكتت قليلاً ثم قالت :

– لكن كيت لا يمكن ألا تدرك ان سوبك قد يعود إلى البيت فيروي ظمأه من ذلك النبيذ .

فردت إيزا قائلة :

– كلا ! ما أحسبها تدرك ذلك فإنها غبية كما قلت . لا ترى إلا ما تحب أن تراه .. ومن الجائز أن تتصور يحموز يشرب وحده من ذلك النبيـذ فيموت .. وأن ينسب موته إلى التدخل السحري من ناحيـة روح نوفريت الشريرة الحسناء . إنها لا تستطيع ان تتصور الا شيئاً واحداً بسيطاً لا اشياء عديدة ممكنة او محتملة . ولما كانت لا تريد لسوبك الموت فإنها لم يخطر ببالها إمكان عودته وتجرعه من ذلك النبيذ ..

وساد السكوت قليلاً ، ثم استطردت :

– والآن يأتي دور كامني .. نعم اننا لا يمكننا ان نستثني كامني من بحثنا صحيح انه ليس هناك باعث ظاهر له إلى إيذائنا .. ولكننا لا نعرف كثيراً عنه . لقد جاء من الشمال مثل نوفريت . وقد راقبته حينا عن كثب . ولكني في الحق لم أفهمه . فإنه يبدو دائما مرحا خالي البال . ولم يظهر اهتماما كبيراً لموت نوفريت . فهل حزن كامني حقا لوفاة نوفريت ؟ وهل أراد الانتقام لها ؟ وممن ينتقم ؟ أمن ساتيبي العدوة الأولى لنوفريت ؟ ام من يحموز بوصفه زوج ساتيبي ؟ ام من سوبك الذي طالما توعد نوفريت ؟ وهل يمكن ان يفكر في الانتقام ايضا من كيت لأنها كانت تضطهدها ؟ ومن ابيي لأنه كان يكرهها ان ذلك يبدو أقرب إلى الخيال .. ولكن من يدري ؟

ثم سكتت إيزا ونظرت الى حوري متسائلة . فلم يزد على ان كرر عبارتها الأخيرة قائلا :

– من يدري .

ثم امسك عن الكلام هنيهة وعاد فقال :

– كلا ! لا يمكنني أن أحدد إتهامي الآن .

وسكت حوري هنيهة ثم قال وكأنه يحدث نفسه :

– إن الدليل الوحيد على ما يكنه فكر انسان هو مسلكه . فإذا كان مسلكه عجيبا مستغربا ولم يعد هو نفسه فعندئذ ..

فسارعت رنزنب إلى اكمال عبارته من عندها قائلة :

– فعندئذ ترتاب فيه ؟ اليس كذلك ؟

– كلا .. بل العكس هو الصحيح ان الرجل الذى يستكن الشر في ذهنه وتكون نواياه سيئة يشعر بهذه الحقيقة في نفسه ويجتهد في اخفائها عن الناس بكل وسيلة ممكنة ولذا لا يظهر منه ما يستغرب .

– اتقصد رجلا !

– رجلا او امرأة .

– فهمت ولكن ماذا لديك عنا الا تمسنا الريبة نحن ايضا .

– اجل يجب ان نفكر في ذلك ايضا . فأنا مثلا حزت ثقة بالغة في هذا الدار . وفي يدى امر كتابة العقود وبيع الحاصلات والمنتجات كما اني اتولى جميع الحسابات ومن المحتمل ان اكون قد زيفتها - كما كشف كامني تزييف الحسابات في الشمال ؛ وربما يكون يحموز قد بدأ يرتاب في . ولهذا يكون من صالحي ان يسكت الى الأبد !

وهنا قالت ايزا :

– وأنا كيف يمكن ان تتجه الشبهات الي .. سأشرح لكم هـــذا بنفسي فاستمعوا لما اقول .. اني امرأة عجوز والذهن في الكبر يمرض أحيانا، فيبغض

صاحبه حيث يجب ان يحب وقد اكون سئمت أحفادي وعلى هذا عمدت الى القضاء عليهم ! انها محنة تصيب العجائز احيانا من مس روح شريرة !

وهنا قالت رنزنب :

– وانا .. لماذا احاول قتل اخ احبه .

فقال لها حوري :

– اذا مات يحموز وسوبك وايبي فإنك تكونين الباقية من ذرية أمحوتب وعندئذ يجد لك زوجا؛ وتنتقل كل أملاك ابيك اليك وتصبحين أنت وزوجك وصيين على أبناء يحموز وسوبك .

ثم ابتسم وواصل كلامه :

– لكننا تحت هذه الشجرة لا نرتاب فيك يا رنزنب !

وقالت ايزا

– نعم .. نحن هنا تحت هذه الشجرة لا يمكن الا ان نحبك يا رنزنب !

- ١١ -

لم تكد إيزا تأوي إلى غرفتها حتى جاءت حنث تقول :

– عجباً .. أكنت خارج البيت ؟ إنك لم تغادريه منذ عام تقريباً .

ثم وقفت تنظر إليها في فضول وتساؤل فأجابتها إيزا :

– إن العجائز ذات أهواء كما تعلمين .

– لقد رأيتك تجلسين عند البحيرة مع حوري ورنزنب .

فنظرت إليها إيزا بعينيها الضيقتين وقالت :

– نعم ، ولكن ليس بحيث يسمعني أحد !

– لا أدري لماذا هذه القسوة علي يا سيدتي .. ليس هنا غير أحوتب من يقدر إخلاصي .

فقطعت إيزا كلامها بحدة قائلة :

– صدقت يا حنث ، إنك لا تعتمدين إلا عليه أليس كذلك ؟ فإذا حدث له شيء من ..

فقطعت حنث كلامها قائلة :

– لا .. لا أن يحدث شيء لأحوتب؟

– انى لك أن تعلمي ذلك يا حنث؟ أيوجد أمان لأحد في هذه الدار ، فقد حدث شيء ليحموز ، ومن قبله حدث شيء لسوبك و ..

– هذا صحيح ، وقد مات سوبك المسكين ، وأشرف يحموز على الموت ؟

فاقتربت إيزا منها ، وأخذت تطيل النظر إلى وجهها قائلة :

– لماذا ابتسمت يا حنث وأنت تقولين ذلك ؟

فبغتت حنث وتمتمت :

– أنا ؟ أنا ابتسمت .. انك تحلمين ولا شك وهل من المعقول ان ابتسم ونحن نتكلم في هذا الأمر الرهيب ..

– اسمعي يا حنث . اني حقاً ضعيفة البصر إلى حد يقرب من العمى ، ولكني لست عمياء . ولذا اسألك مرة أخرى : لماذا ابتسمت ابتسامة تدل على ارتياح خفي واغتباط ؟

فتظاهرت حنث بالغضب وأجابت :

– إن ما تقولينه يا إيزا يدعو إلى السخط .

فابتسمت ايزا قائلة :

– وهو أيضاً يدعو إلى الخوف كما بدا في وجهك الآن .

فسكتت حنث قليلاً ثم ردت :

– من الذي لا يخاف وهذه الحوادث العجيبة تقع بالدار ؟ إننا كلنا في خوف ورعب إذ نحس الأرواح الشريرة تعود من عالم الأموات لكي تعذبنا ولكني أعرف ما هنالك .. فقد كنت تستمعين إلى حوري . فما الذي قاله عني ؟

– أتخافين مما يعرفه حوري عنك يا حنث ؟

– إنه لا يعرف عني أي شيء مطلقاً ، وخير لك أن تسأليني أنا عما أعرفه عنه !

– حسناً يا حنث ماذا تعرفين عنه ؟

فتأوهت حنث وأجابت :

– إنكم جميعاً تزدرون حنث المسكينة .. إن حوري يتجاهلني كلما لقيني

في أي مكان ، ونظراته حين يواجهني تدل على أنه يعتبرني لست شيئاً في الوجود . على أن من الخير له أن ينظر الي وان يحس وجودي . فقد حسبت ساتيبي نفسها بارعة ، فأين هي الآن ؟

فنظرت ايزا اليها واجابت :

– إذهبي يا حنت .. اذهبي يا حنت وانا أحذرك ، كوني على حذر في كلامك وأفعالك . فإننا لا نريد وفيات جديدة في هذه الدار ، ولعلك تفهمين .

* * *

لا شيء سوى الخوف .

لم تدرك رنزنب إلا فيما بعد معنى هذه الكلمات التي فاهت بها من حيث لا تشعر وهي جالسة عند البحيرة مع إيزا وحوري !

ثم استدارت وقصدت إلى مدخل صحن الدار ، ولم تمض لحظة حتى دخل ابي مرفوع الرأس وعلى وجهه ابتسامة مرحة .

وقال لها إبي :

– لماذا تنظرين الي هكذا يا رنزنب ؟

– كنت انظر اليك ؟

فضحك ابي وقال :

– انك أشبه بالمذهولة مثل حنت .

– إن حنت ليس بها شيء من الذهول ، بل هي – على عكس ذلك – داهية خبيثة !

– نعم يا رنزنب ، أنا أعرف إنها شديدة الخبث والواقع إنها مخلوق

مضايق بالبيت . وفي نيتي ان أتخلص منها .

ففتحت فاها مشدوهة ثم سألته :

تتخلص منها ؟ كيف ؟

فابتسم إبي وقال :

– ماذا بك يا اختي العزيزة ؟ ماذا دهاك ؟ هل رأيت أشباحاً كالتي رآها ذلك الغلام الأسود البائس الأبله

فبقيت هنيهة ساكتة ثم قالت :

– أكل إنسان عندك أبله يا ابي .

– كلا ! ولكن ذلك الغلام كان أبله ولا شك .. ولا اكتمك اني لا أطيق الغباوة . فإني أقاسي الكثير من الأغبياء . ولم يكن من دواعي السرور أن ابتلي بأخوين اكبر مني بطيئي الحركة لا يريان إلى أبعد من أنفيهما . والآن وقد أزيحا من طريقي ، ولم يبق سوى أبي لكي أعالجه فإنك لا تلبثين قليلاً حتى يظهر لك كيف أسير الأمور . إن أبي سوف لا يفعل إلا ما أشير به !

– اسمع يا ايبي ان اخويك لم يزاحا كلاهما من طريقك كما قلت ، لقد مات سوبك حقاً ، ولكن يحموز يستعيد صحته وقوته كما كان .

– هذا ما قرره مرسو الطبيب أيضاً .

فضحك ايبي باستهزاء وقال :

– لست موافقاً على هذا الرأي ، ان يحموز قد انتهى . وربما يستطيع فيما بعد أن يغادر فراشه ليزحف قليلاً في البيت ، او ليجلس في ضوء الشمس ، ولكنه لن يستطيع أبداً أن يعود كما كان ، فقد أفلت من الموت متأثراً بالسم الذي تجرعه ولكنك ترين ان صحته لم تتقدم .

– ستتقدم صحته فيما بعد ، وقد ذكر الطبيب انه سيسترد قوته وحيويته بعد أيام .

فهز ايبي كتفيه وقال :

- إن الأطباء لا يعرفون كل شيء . انهم في كثير من الأحيان يرسلون ظلمات ضخمة جوفــاء .. وفي استطاعتك ان تلومي نوفريت الشريرة إذا شئت ، فإن أخانا العزيز يحموز قد انتهى !

ثم خطا نحوها حتى كاد وجهه يلامس وجهها وقال لها :

- من أجل ذلك ، ينبغي لك يا رنزنب أن تحذري غضبي .

ولم تجب ، بل وقفت تتفرس في وجه ايبي ..

ثم سمعت وقع قدمين خلفها ، وإذا كيت قد أقبلت ، ووجهت الخطاب اليها قائلة :

- ماذا يقول لك ايبي يا رنزنب ..

فقالت في هدوء :

- انه يذكر انه سيصبح سيد البيت عما قريب .

فقالت كيت دون أن تنظر اليه :

- اهذا ما يحسبه .

ثم هزت رأسها في اسف وحسرة كأنما تستبعد ذلك . وعــادت من حيث اتت .

* * *

كان أحموتب جالساً مع حوري يفحصان ورقة حساب . فلما لمح ايبي قادماً انفرجت أسارير وجهه وقال مرحباً به :

- ها هو ذا عزيزي ايبي . ما وراءك من أنباء المزرعة .

فرد ايبي :

- كل شيء يسير على ما يرام يا أبي . وقد كنا نحصد الشعير ومحصوله

وافر !

فتنفس احموتب الصعداء ثم قال :

- ذلك من فضل (رع) . ان كل شؤوننا خارج الدار تسير على احسن حال . ليت الأمر كان هكذا فيما يختص بشؤوننا الداخلية ! ولكني وطيد الثقة في (عشايت) فإنها لن تخذلنا ولن تضن علينا بعونها في كربنا الحاضر اني في قلق على يحموز لضعفه المستمر !

فابتسم ايبي وهز كتفيه قائلا :

- مسكين يحموز انه كان ضعيفاً باستمرار !

وهنا رد حوري قائلا :

- كلا .. بل كان دائماً في صحة جيدة .

فقال ايبي مؤكداً قوله :

- ان صحة الانسان تتوقف على حالته الروحيــة . ويحموز لم تكن له حيوية أبداً . لقد كان يخاف حتى من إصدار الأوامر .

فقال أحموتب :

- لم تكن هذه حاله في العهد الأخير . لقد برهن فيه على انه أهل للسلطة وقد أدهشني ما اعتراه من التغير . ولكن هذا الضعف في أعضائه يزعجني ، وكان مرسو قد أكد لي انه متى زال أثر السم من جسمه لا يلبث قليلاً حتى يشفى .

وتابع أحموتب :

- ولكن ما الذي ينبغي عمله ! فقد لجأنا الى عشايت وبعثنا بالهبات الى المعبد ، برغم اني لا أعتقد ما يعتقده النساء من فائدة ذلك ، فماذا نفعل اكثر من ذلك .

فقال حوري

- دع احد العبيد الموثوق بهم يجهز طعامه وليراقب ذلك العبد باستمرار

على اي حال لن نخسر شيئاً اذا جربنا ذلك !

وعلى اثر ذلك غادر ايبي الغرفة .. بينما حوري يشيعه بنظراته وكله حيرة .

وفي طريق ايبي بعد مغادرته البيت غاضباً ، اصطدم بحنث من حيث لا يشعر فكاد يطرحها ارضاً من قوة الصدمة ..

ثم قال لها بحدة :

– ابعدي من طريقي يا حنث .. انك دائماً تزحفين هكذا وتقفين في الطريق ..

فوقفت تنظر اليه في دهشة وقالت :

– انك جاف يا ايبي .. فقد رضضت ذراعي .

– هذا حسن فإني ضجر منك ومن طرائقك . وخير لك ان تبادري بالخروج من هذا البيت ، والا فسأتولى انا امر اخراجك .

فلمعت عيناها بالخبث وقالت :

– اذن انت تريد ان تخرجني من البيت . اهذا جزائي يا ايبي بعد كل ما منحته لكم من العناية والمحبة .. انك بادي الغضب يـــا ايبي ؛ ما الذي اغضبك .. اخائف انت من شيء .

فنظر اليها بازدراء وقال :

– انك لا تخيفينني ايتها الهرة العجوز .

وتركها ومضى خارجاً من المنزل .

ومضت حنث بخطى بطيئة حتى اقتربت من غرفة يحموز ؛ فسمعته يتأوه ؛ ثم رأته يحاول النهوض من سريره ولكن ساقيه خذلتاه فكاد يسقط على الأرض .

فخفت الى مساعدته وقالت له :

– هيا يا يحموز ارجع الى سريرك .

فنظر اليها يحموز ملياً وقال :

– إنك لقوية يا حنث . إن من يراك لا يتصور قط انك بهذه القوة .

ثم عاد إلى فراشه فتمدد فوقه واستأنف كلامه قائلاً :

– شكراً لك ! لكن ما الذي دهاني .. إني مشرف على الموت

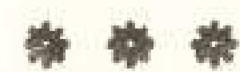
فقالت حنث بجد :

– لا تقل هذا .. إن غيرك سيموت قبلك .

فقعد مستنداً على كوعه وحملق اليها وقال :

– ماذا تعنين يا حنث ؟

– إني أعرف ما أقوله .. انك لست أنت الذي عليه الدور في الموت .



وقف كامني في طريق رنزنب وقال لها :

– لماذا تتفادين لقائي يا رنزنب ؟

فاحمر وجهها ولم تحر جوابا ..

فعاد يسألها :

– لماذا يا رنزنب ؟ اخبريني عن السبب !

ولكنها لم تجب إلا بهز رأسها .. ومضت هنيهة وهي واقفة تتأمله وهو ينظر اليها .. وكانت تخشى ان يكون وجهه قد تغير كما تغير كل شيء في المنزل ..

ثم سرها أن رأته كما كان ؛ وان بقي ينظر اليها في جد ؛ دون أن يفتر ثغره عن ابتسامته المعتادة . ثم خفضت من بصرها اذ كانت دائماً تضطرب من نظرته . ويختلج جسمها من قربه . وتسرع دقات قلبهـــا اذا

حدثها .

وعاد هو فسألها :

ـ لماذا تتفادينني يا رنزنب؟

فاستجمعت نبرات صوتها الهارب وقالت :

ـ إني لم أكن أتفاداك . ولم ارك قادما !

فابتسم وقال :

ـ إنك لا تقولين الحق أي رنزنب الحسناء !

وسرت الرعدة في جسمها إذ شعرت بيده القوية الدافئة حول ذراعها ، ولكنها سرعان ما حررتها منه قائلة :

ـ لا أحب ان يلمسني احد !

فهتف وقال :

ـ لماذا تصديني يا رنزنب ؟ إنك ما زلت في عنفوان الشباب قوية جميلة ، فمما يناقض الطبيعة ان تظلي حزينة على زوجك طول حياتك . سوف أبعدك عن هذا المنزل فإنه مملوء بالموت والأرواح الشريرة . ستذهبين معي إلى حيث تكونين في أمان !

فبقيت رنزنب ساكنة لا تنطق بلا أو نعم . لكنها أحست قلبها يدق سريعاً . وشعرت بضعف يعتري حواسها . وإلى جانب هذا الشعور الناعم ، شعور الضعف والاستسلام ، تملكها شعور آخر بالعداء والتحدي ، وقالت تحدث نفسها :

« ان لمسة من يده لذراعي تجعلني أفقد كل قواي ! انه قوي ، عريض الكتفين ضاحك الثغر ولكني لا أدري شيئاً عن ذهنه وما يدور فيه ! ولا أدري شيئاً عن قلبه ومبلغ وفائه . آه ! ما الذي أريده حقاً لا ادري . . »

ثم قالت له

ـ لا اريد ان اتزوج ! اريد ان ابقى وحيدة لنفسي !

ـ إنك مخطئة يا رنزنب . انت لم تخلقي لتعيشي وحيدة . إن يدك تنم عن ذلك إذ ترتعش في يدي . أنظري !

فجذبت يدها من يده بجهد وقالت له :

ـ أنا لا أحبك يا كامني بل أحسبني أمقتك !

فابتسم وقال :

ـ لا أبالي مقتك لي ! إن البغض جد قريب من الحب وسوف نتحدث عن ذلك مرة أخرى !

وتركها ومضى .

ومضت رنزنب في خطى بطيئة أيضاً ، حتى بلغت البحيرة حيث كانت كيت فجلست بجانبها ، وأخذت كيت تكلمها فترد عليها ردوداً قصيرة مبهمة ثم سكتتا . وبغتة قطعت رنزنب حبل السكوت بقولها :

ـ أترين أن اتزوج من جديد يا كيت ؟

فأجابت كيت قائلة دون اكتراث :

ـ لا أرى ضيراً في ذلك . فإنك في عنفوان الشباب وموفورة الصحة .. ويمكنك أن تنجبي أطفالاً إلى جانب تيتي !

فعادت تقول :

ـ أهذا كل ما في حياة المرأة يا كيت ! ألا شيء هناك غير شؤون المنزل وإنجاب الأطفال وملاعبتهم في اوقات الفراغ عند البحيرة او تحت شجرة الجميز ..

فأجابت كيت باهتمام :

ـ أجل هذا كل ما يهم المرأة وما يملأ حياتها لا شك انك تعلمين ذلك . ولكنك تتكلمين وكأن المرأة أمة رقيقة في رأيك والواقع ان النساء لهن مكانة ونفوذ في مصر . فمن طريقهم ينتقل الميراث إلى اولادهن ان النساء بمثابة الدم الذي يجري في شرايين البلاد !

ثم اخذت رتزنب تتأمل تيق وهي مشغولة بصنع قلادة من الزهر لدميتها، وقد قطبت جبينها قليلا لاهتمامها بما تعمله ..

ونظرت كيت اخيراً إلى رتزنب متسائلة ثم قالت لها :

- ماذا تريدين يا رتزنب ! اني لم أفهم مرادك تماماً .

فتنهدت مرة اخرى وقالت

- لا شيء .. لا أعني شيئا

ثم عادت تتطلع إلى ما حولها فسرها منظر الأطفال اللاعبين في المساء ، وكيت جالسة ترقبهم في سكون ثم قالت بصوت خافت :

- ما أهدأ هذا المكان ! من الذي يتصور ان شيئاً فظيعاً يحدث هنا .

وفي صباح اليوم التالي حدث في هذا المكان الهادىء نفسه إلى جانب البحيرة افظع مما استبعدت رتزنب ان يتصوره احد . فقد وجد إبي منبطحاً هناك على الأرض ووجهه في الماء وكان واضحاً ان يداً امسكته وارغمته على اتخاذ هذا الوضع حتى اختنق وفارقته الحياة .

- ١٢ -

جلس أحوتمب منطوياً على نفسه وقد عاجله وهن الشيخوخة قبل الأوان فبدا شيخاً محطماً ، مغضن الوجه ، ترتسم على وجهـه ملامح الخوف والدهشة .

وجاءت حنث اليه بالطعام وراحت تغريه بتناوله قائلة :

- ماذا دهاك يا سيدي .. يجب أن تأكل لتحفظ عليك قوتك

لكنه لم يستجب لاغرائها وقال :

- لماذا آكل يا حنث . وما فائدة القوة ، لقد كان ابي قوياً بشبابه وجماله والآن ها هو ذا يرقد في الماء المالح لقد مات ابي يا حنث .. مات ابي العزيز آخر ابنائي !

فاقتربت منه حنث وهمست قائلة :

- كلا يا احوتمب لا يزال لك يحموز ، وفيه لك عزاء وسلوى .

فهز رأسه ساخراً وقال :

- يحموز لا زال لي .. كلا هو ايضاً مقضي عليه ، إننا كلنا مقضي علينا اي سوء حل بنا جميعاً .. أ كان علي ان أعلم ان المصائب ستنزل بنا لأني اتخذت لي خدينة .. أم ترى عشايت تريد أن تنتقم مني .

- كلا ليس ينبغي لك ان تقول ذلك . لم يمض إلا وقت وجيز منذ وضع

الوعاء المحفور عليه الالتماس في غرفة الهبات ، الا تعـــلم طول الوقت الذي يتطلبه التقاضي في هذا العالم الدنيوي والتأجيلات التي لا تنتهي في المحكمـــة المركزية ، والوقت الأطول من كل ذلك إذا عرضت الدعوى على الوزير ؟ إن العدالة هي العدالة في هذا العالم ، انها دائماً تسير ببطء ولكنها تعالج بالحق في النهاية !

فهز أحوتب رأسه مرتاباً

واستطردت حنث تقول :

– ثم لا تنس ان ابي ليس ابن عشايت ، بل كانت امه اختـــك الثانية واذن .. ليس هناك ما يضطر عشايت الى التعجل في الأمر ، اما يحموز فالأمر يختلف فيما يختص به ولا يمكن ان تهمله عشايت . ان يحموز سيبرأ من مرضه لا شك في ذلك ، لأنه لا شك في ان عشايت ستتولى امره .

فتنفس أحوتب الصعداء ثم قال :

– ان في كلامك عزاء كبير لي يا حنث وانك لتقولين حقاً ، فإن يحموز يستعيد قوته باطراد كل يوم ، انه ابن طيب مخلص ولكن مـا اشد حزني على ابي ! لقد ذهب انضر ما يكون صحة وشبابا وجمالاً .

وعاد أحوتب يتأوه نادبا ولده . وقبعت حنث بـين يديه كالكلب ، وتظاهرت بالبكاء .

ثم قال :

– آه من تلك الفتاة الملعونة ومن جمالها ليتني لم تقع عيناي عليها .

فقالت له حنث :

– صدقت يا سيدي ، إنها من بنات (سيت) ولا ريب في أنها برعت في السحر !

وما اتمت جملتها حتى وصل إلى سمعها وقع عصا تقرع الأرض ثم ظهرت ايزا قادمة تعرج الى الردهة ، وصاحت قائلة :

– ألم يبق لأحد عقل في هذا البيت ؟ اليس لديك يا أحوتب من عمل الا أن تلعن تلك الفتاة البائسة التي لا ذنب لها إلا أن استجابت لرغبتك فجاءت معك من الشمال وما ذنبها إذ انغمست في مكر النساء . ان مسلك الغباء الذي تعرضت له في الدار من زوجتي ابنيك كان لا بد أن يثيرها !

فرد أحوتب :

– اتسألين ما ذنبها يا أمي ؟ الم يذهب ضحية مكرها وكيدها اثنان من ابنائي وهذا هو الثالث يوشك أن يلحق بهما .

– إن هذا ما كنت انتظر ان أسمعه منك . ما دمت لا تنظر إلى الوقائع كما هي . امح من ذهنك تلك الخرافة السخيفة التي تزعم ان روح فتاة ميتـة بنزل السوء بهذا المنزل .

إن رأس ابي لم تضعه في الماء إلا يد انسان .. ويد انسان ايضاً ولا شك هي التي وضعت السم في النبيذ لسوبك ويحموز !

إن لك عدواً هنا في هذه الدار يا ولدي والدليل على ذلك انه منـذ اتبعت نصيحة حوري وصارت رنزنب تعد طعام يحموز بنفسها أو تحت رقـابتها . وتحمله بنفسها اليه . منذ ذلك ويحموز يستعيد صحته وقوته كل يوم باطراد. ان حنث تشجعك على هذا لأنها حمقاء ايضاً .

إن زوجتك المتوفاة عشايت قد تبذل نفوذها لمعاونتك في العـــالم الآخر ولكنها لا تقدر أن تفكر بدلاً منك في هذا العالم . إن علينا ان نعمل والا فستحدث وفيات جديدة !

– أتعتقدين يا أماه ان لي عدواً حياً في هذه الدار ؟

– نعم اعتقد ذلك لأنه هو الشيء الوحيد المعقول !

– إذا صح هذا كنا جميعاً في خطر !

– لا شك في اننا كذلك يا بني .. اننا جميعاً في خطر شديد . وهذا الخطر لا دخل فيه للسحر وأرواح الموتى . انه خطر تسلطه علينـــا يد إنسان حي

يعيش بيننا آمناً مطمئناً وهو الذي وضع السم في الطعام والشراب وهو الذي انسل وراء ابيي العزيز وهو عائد ليلاً من القرية وامسك رأسه قسراً في الماء حتى مات !

فأطرق امحوتب مفكراً ثم رفع رأسه اخيراً وقال لامه :

– ان مثل هذا العمل يتطلب قوة وجرأة وحيلة وقد كان ابيي قوياً .

– اجل كان ابيي قوياً جديراً بأن يرهب جانبه ولكنه كان قد شرب كثيراً من الجعة في القرية ولعله انحنى من تلقاء نفسه ليغسل وجهه بماء البحيرة وفي هذه الحالة كان قليل من القوة يكفي لكي يدفع رأسه في الماء ويمسكه فيه حتى تزهق أنفاسه وتهمد حركته . ومن الجائز جداً ان ابيي لم يكن يتوقع ممن كان بجانبه حينذاك ان يخونه .

فبان الجد في وجه امحوتب وقال لأمه :

– ماذا تقولين ؟ اتعنين ان إمرأة مثلاً قد اغتالت ابيي وغدرت به ؟ إن هذا محال . نعم هذا محال يا أماه ولو ان البيت فيه عدو لدود للأسرة إلى هذا الحد ما خفي علي امره !

– هناك شر يكمن بالقلب ولا يبدو على الوجه .

– اتعنين احداً من عبيدنا أو خدمنا ؟

– كلا ! إن العبيد والخدم لا يمكن أن يفكروا في ذلك .

– إذن أنت تعتقدين ان الجاني من بيننا نحن ؟ ولكن من يكون يا ترى ! ان حوري كما تعلمين بمثابة فرد من افراد الأسرة وقد برهن على اخلاصه وأثبت انه أهل للثقة . وليس كامني بغريب عنا فهو يمت الينا بصلة القرابة ، وقد برهن على إخلاصه بجده في خدمتي وفضلاً عن ذلك جاءني صباح اليوم يطلب إلي أن أوافق على زواجه برنزنب !

فاهتمت ايزا بهذا النبأ وقالت :

– هل طلب اليك ذلك ؟ وبماذا أجبت ؟

– وماذا أقول له ؟ أهذا وقت مناسب لطلب الزواج ؟

– وما الذي قاله كامني بعد أن أخبرته بأن الظرف غير مناسب ؟

– ذكر انه يعتقد عكس هذا ، لأن رنزنب ليست في أمان هنا .

– هل هي كذلك حقاً ؟ لقد كنت أحسبها في أمان وكذلك حسبها حوري .. ولكن الآن !

– هل في الامكان أن تجري مراسم زواج ومراسم وفاة في وقت واحد ؟ إن هذا الأمر غير لائق . إن الاقليم كله سيتحدث عن ذلك لو انه حدث .

وابتسمت ايزا ابتسامة متجهمة .

فنظر اليها امحوتب وقال :

– إن ما تقولينه ليس مزاحاً ولكنه الحقيقة الواقعة ويا للأسف !

فقالت إيزا بحزم :

– لا تثق بأحد هذا أهم شيء ، لا تثق بأحد !

وهنا بدأت حنت تنتحب وقالت لايزا :

– لماذا تنظرين الي ؟ اني واثقة بأنه إذا كان احد هنا جديراً بالثقة فهو أنا !

فالتفت امحوتب الى حنت وقال لها :

– لا تبكي يا حنت ! اني اثق بك ، بل اني لعلى يقين من انك صادقة مخلصة .

فقالت له ايزا :

– انك لا تعلم شيئاً يا امحوتب . لا أحد منا يعلم شيئاً ، وهذا هو وجه الخطر المحدق بنا .

وصاحت حنت :

– انك تتهمينني يا سيدتي وهذا شيء لا يطاق .

– لا أقدر ان أتهم احداً ! انه احتمال لا اكثر وليس عندي دليل قاطع

ضد أحد .

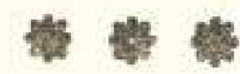
فقال لها أحوتب باهتمام

— احتمال ؟ هل اتجه ذهنك الى اتهام أحد ؟

— نعم ، مرة ومرتين وثلاثاً! سأصدقك القول : لقد ارتبت اولاً في ايبي ولكن ايبي مات ، وإذن كان ظني خاطئاً ، ثم ارتبت في شخص آخر ولكني في اليوم الذي مات فيه ايبي لاح لي احتمال ثالث .

وتوقفت عن الكلام هنيهة ثم قالت :

— هل حوري وكامني في الدار ؟ ابعث في طلبهما .. واطلب رنزنب ايضاً من المطبخ ، وكيت ويحموز . ان لدي شيئاً يجب ان يسمعه كل من بالدار .



نظرت ايزا إلى أفراد الأسرة المجتمعين حولها ، ولم يفتها ان تلاحظ برغم ضعف بصرها نظرة يحموز الجادة الرقيقة ، ولا ابتسامة كامني ، ولا الخوف الظاهر في عيني رنزنب ، والجمود وعدم الاكتراث في ملامح كيت ، والألم والعذاب في وجه أحوتب ، والفضول بل السرور في عيني حنت !

ثم قالت لنفسها : « ان وجوههم لا تنم عن شيء يفيدني ، فهي إنما تبدي تأثرها الخارجي ولكن اذا كنت على صواب فلا بد أن يخون أحدهم مظهره »

ثم قالت بصوت مرتفع :

— لدي شيء افضي به اليكم جميعاً ، ولكني سأكلم حنت اولاً ، وأمامكم جميعاً ..

فتغيرت ملامح حنت ، واختفت من وجهها امارات الفضول والسرور ، وحل محلها الفزع وقالت معترضة :

— إنك ترتابين في يا ايزا . ولقد كنت أعرف ذلك . إنك ستقيمين قضية ضدي . وسوف يحكم علي دون أن يسمع لي قول .

فقالت ايزا ساخرة :

— بل نحن نسمعك جميعاً !

ونظرت إلى حوري فرأته يبتسم . ثم استطردت حنت فقالت مضطربة :

— إني لم أرتكب إثماً ! إني بريئة .

— بل قلت يا حنت كلاماً سمعته بأذني . لقد قلت انك تعرفين شيئاً ما عن حوري . والآن أخبرينا ماذا تعرفين عنه ؟

فبدا شيء من الدهشة على حوري وقال :

— أجل يا حنت ماذا تعرفين عني ! هيا أذكريه .

فعادت حنت إلى مكانها وردت :

— لا أعرف شيئاً . وماذا أعرف عنه ؟

— هذا ما نطلب اليك أن تذكريه !

فهزت حنت كتفيها وردت :

— لقد كان ذلك كلاماً لا معنى له . لم أكن أقصد شيئاً .

— سأعيد على مسمعك ما قلته . لقد ذكرت اننا جميعاً نحتقرك ولكنك تعرفين الكثير مما يجري في هذا البيت ، وإنك ترين أكثر مما يراه الدهاة . ثم قلت ان حوري حين يقابلك ينظر اليك وكأنك غير موجودة وكأنه يرى شيئاً وراءك ، شيئاً ليس موجوداً .

— إنه دائماً ينظر إلي هكذا . إنه ينظر إلي وكأنني حشرة أو شيء لا قيمة له مطلقاً .

— ولكن هناك جملة ثبتت في ذهني وهي وصفك لنظرته اليك بقولك : وكأنه يرى شيئاً غير موجود . كما قلت لي أيضاً : إن من الخير له أن ينظر

إلي . وبعدئذ تكلمت عن ساتيبي . أجـــل عن ساتيبي ! وقلت : انها كانت ماهرة ولكن أين هي الآن ؟. أليس كذلك يا حنث ؟

ثم نظرت ايزا حولها وتابعت :

ـ ألا يعني ذلك شيئاً ؟. فكروا في ساتيبي التي لم تعد على قيـــد الحياة . وتذكروا أن الانسان يجب أن ينظر الى شخص لا الى شيء غير موجود !

وساد صمت رهيب ثم أخذت حنث تصرخ قائلة :

ـ لم أقل شيئاً .. أنقذني يا سيدي . لا تدعها .. لم أقل شيئاً .

واشتد الغضب بامحوتب حتى لم يقدر أن يكظمه وصرخ قائلاً :

ـ هذا شيء لا يحتمل ! إني لا أسمح بأن تتهم هذه المرأة المسكينة وتروع هكذا ! ماذا عندك ضدها ؟

وقال يحموز بخوفه المعتاد :

ـ إن أبي على صواب . اذا كانت لديك تهمة واضحة ضد حنث فابرزيها يا جدتي .

فقالت ايزا بهدوء :

ـ اني لا أتهمها !

ثم استندت الى العصا وبان جسمها وكأنه قد انكمش . وهنا التفت يحموز الى حنث وقال :

ـ ان ايزا لا تتهمك باحداث الفظائع التي حدثت . ولكن اذا صح ما فهمته منها فهي تظن انك تعرفين شيئاً تكتمينه .. فماذا تعرفين ؟

ولكن حنث هزت رأسها وقالت :

ـ لا أعرف أي شيء مطلقاً

ـ تأكدي مما تقولين لأن المعرفة خطرة !

ـ لا أعرف شيئاً وأقسم بالآلهة التسعـة وبالإلاهة (معات) بل أقسم

باسم (رع) نفسه !

وهنا قالت ايزا :

ـ الآن أريد العودة الى غرفتي .

فهرع اليها حوري ورنزنب ليساعداها فقالت :

ـ لا أريدك أنت يا رنزنب ، أريد حوري فقط .

ثم استندت اليه حتى وصلت الى الغرفة . فلما نظرت اليه رأته عابساً ، فقال لها :

ـ لقد كنت غير حكيمة يا ايزا لقد جازفت مجازفة خطيرة !

ـ اذن .. أنت تعتقد مثل ما أعتقد أنا ؟

ـ قد اعتقدت ذلك منذ حين ، لكن ليس عندي حتى الآن دليل ولا ظل من دليل ، وأنت كذلك أيضاً ، وكل ما لديك استنتاج لا أكثر ! الآن يجب أن تحذري يا ايزا .. انك أصبحت في خطر .

- ١٣ -

— والآن وقد أصبح الأمر في يدك يا رنزنب : ماذا ترين ؟

فرددت رنزنب بصرها بين أبيها ويحموز حائرة وقالت :

— لا أدري !

وتابع أحوتب يقول:

— لو كانت الظروف عادية لكان أمامنا فسحة من الوقت للبحث ، ان لي أقارب آخرين ، وكان في مقدوري ان اختار منهم اليق الأزواج لك . لكن في هذه الظروف لا يطمئن الإنسان الى الحياة .

ثم ضعف صوته وخفت وهو يتم كلامه قائلا :

— هذا هو الموقف يا رنزنب . ان الموت يهددنا نحن الثلاثة ، أنا وأنت ويحموز ، ولا أدري أينا يموت قبـل الآخرين ، ولذا ينبغي لي ان أدبر أموري ، واذا حدث شيء ليحموز ، فإنك وانت ابنتي الوحيدة ستحتاجين الى رجل يقف الى جانبك ويشاركك في الميراث ويقوم بمهام المزرعة التي لا يمكن ان تتولاها امرأة ، لأنه من يدري متى تحين ساعتي ؟ ولقد رتبت في وصيتي أمر الوصاية على أولاد سوبك ، على أن تكون لحوري اذا لم يكن يحموز على قيد الحياة ، كذلك دبرت أمر الوصـاية على أولاد يحموز ، أليس كذلك يا يحموز ؟

فأومأ يحموز برأسه موافقا وقال :

— ان حوري دائما حبيب الى قلبي وكأنه فرد منا .

— صدقت ، ولكنه مع هذا ليس من أسرتنا ، أما كامني فهو من ذوي قربانا ، فمهما نقلب الأمر على وجوهه نجده أحسن زوج أمامنا الآن لرنزنب .

ثم نظر اليها متسائلا ، فغمغمت قائلة :

— لا أدري !

فعاد أحوتب يقول لها :

— انه وسيم الطلعة سار الصحبة اليس كذلك ؟

فاكتفت بأن أومأت برأسها موافقة ، ثم سألها يحموز :

— لعلك لا تريدين مع هذا ان تتزوجي به ؟

فنظرت رنزنب الى أخيها نظرة شكر ، اذ أدركت انه لا يريد منها ان تتعجل في الارتباط بشيء لا ترتاح اليه وردت :

— اني في الحقيقة لا أدري ماذا أريده ، ان هـذا غباء ولكني في الواقع غبية اليوم ، لعل هذا من أثر الفزع الذي نعيش فيه !

— لو ان كامني صار لك زوجاً لشعرت بأنك في وقاية .

وهنا قال يحموز لأبيه :

— ألم يكن يخطر ببالك قط ان تزوجها حوري ؟

— هذا أيضاً شيء في الامكان .

فواصل يحموز كلامه قائلا :

— لقد ماتت زوجة حوري وهو شاب صغير ، ورنزنب تعرفه حق المعرفة وتميل اليه !

ثم أخذ هو وأبوها يناقشان مسـألة زواج رنزنب ، بينما جلست هي وكأنها ترى رؤيا في المنام ، وقد شعرت بأن يحموز يعاونها على ان تختار

من تريده حقاً ، ولكنها كانت في تلك الساعة جامدة بلا حياة مثل دمية ابنتها تيق !

وبغتة قطعت حديثها وقالت :

– سأتزوج كامني ما دام أبي يراه لائقاً لي !

فأبدى أحوتب ارتياحه لذلك وخرج تواً من القاعة ، بينما دنا يحموز منها فوضع يده على كتفها قائلا :

– أراغبة انت حقاً في هذا الزواج يا رنزنب ؟

وقد راعها ما بان عليه من عزم فقال :

– سأعارض أبي في هذه المسألة ، انه لا يمكن ان يرغمني على الموافقة !

– انك شفيق بي يا يحموز ، لكن ثق اني في هذه المسألة لم أستسلم مرغمة ان الحياة القديمة التي ألفتها في صغري وجئت لأستعيدها هنا قد انتهت وسأبدأ مع كامني حياة جديدة .

– أأنت واثقة من انك ستكونين سعيدة مع كامني ؟

فنظرت اليه دون ان تجيب بأية كلمة ، ثم أومأت برأسها موافقة ، وغادرته منصرفة الى البحيرة عبر صحن الدار ، فلما اقتربت من طرف البحيرة حيث كان كامني يلاعب تيق ، وقفت تراقبهما من حيث لا يشعران بذلك . وكان كامني مرحاً كعادته بادي السرور بملاعبة الطفلة . فشعرت رنزنب بالميل اليه وقالت لنفسها :

– سيكون نعم الأب لتيق !

ثم أدار كامني رأسه فرآها ، فوقف ضاحكاً يقول :

– قد جعلنا من دمية تيق (كاهن – كا) . وهو الآن يقدم الهدايا ويقوم بالمراسيم في المعبد !

وقالت تيق بجد :

– ان اسمه مريبتاح ، وله طفلان وكاتب مثل حوري '

فضحك كامني وقال :

– إن تيق باهرة الذكاء ، وهي أيضاً جميلة قوية !

ثم أخذ يردد بصره بين الطفلة وأمها ، وأدركت رنزنب من نظراته أنه يفكر في الأطفال الذين سوف تلدهم له ، فأحست رعشة طرب لذلك ، فابتسمت له ابتسامة رقيقة وقالت :

– لقد كلمني أبي ..

فسارع إلى سؤالها في لهفة :

– وأنت توافقين ؟

فترددت لحظة ثم قالت :

– أجل .. أوافق !

– إذن ، سنركب معاً زورقاً في رحلة على صفحة النيل ؟ هذا أقصى مناي !

وتذكرت إذ سمعته يقول ذلك كيف رأته لأول مرة ، لقد جاء يومئذ راكباً زورقه ، وعادت بها الذاكرة إلى ما قالته لها كيت يوماً :

– إن نساء البيت يجب أن يكن يداً واحدة .

وقالت لنفسها :

– نساء البيت ؟ أجل ، وهل أنا ، في النهاية ، إلا واحدة من نساء البيت ؟

ثم سمعت كامني يهتف بها في صوت ينم عن انزعاج :

– فيم تفكرين يا رنزنب ؟ ألا تأتين معي الآن إلى النيل ؟

فقالت له :

– أجل يا كامني ، سآتي معك .

فبدا البشر في وجهه ، وخف إلى حيث كانت الطفلة تواصل اللعب .

فأنهضها في عطف وهو يقول لرنزنب :

– ستكون تيتي معنا !

* * *

مضى الزورق منساباً على صفحة النيل ، وفيه رنزنب وكامني وتيتي .. فقد بعدوا عن الموت ، ومن الخوف من الموت ، وهذه بداية الحياة الجديدة لرنزنب ، وكان كامني يكلمها فتجيبه وكأنها في غيبوبة . فقد كانت تحدث نفسها قائلة :

– هذه حياتي ، ولا مفر منها ! لكن لماذا أذكر المفر ؟ وإلى أي مكان يمكنني ان أفر ؟ هذه هي الحياة ، ولا مفر منها .

وأرسى كامني الزورق ، فخطت منه إلى اليابسة ، وحمل هو تيتي لاحقاً بها وقد التصقت به الطفلة وأحاطت عنقه بذراعيها حتى ثنت يدها سلسلة التميمة التي يحملها ، وهي شارة ذهبية تمثل عنخ .

وأمسك كامني بتلك التميمة ، وراح يثنيها بأصابعه القوية حتى شطرها نصفين ، ثم مد يده بأحدهما إلى رنزنب قائلا :

– خذي هـذا ، وسآخذ أنا الشطر الثاني ، دلالة على اننا نصفا جسم واحد !

ومدت يدها لتأخذ شطر التميمة ، لكنها في هذه اللحظة تذكرت شيئاً فارتدت يدها بحركة آلية !.

وبهت كامني لذلك وسألها :

– ماذا بك يا رنزنب ؟

فتمتمت قائلة :

– نوفريت !

وازدادت دهشته وسألها :

– ماذا تعنين ؟ ما لنا ولنوفريت الآن ؟

– قد كان لنوفريت تميمة مكسورة كهذه !. فقد وجدتها في علبة حليها ، انك أنت الذي أعطيتها إياها . نعم انت ونوفريت !. الآن أدركت لماذا كانت تاعسة ؟! والآن أيضاً عرفت من وضع علبـــة الحلى في غرفتي .. نعم يا كامني إني الآن أدركت كل شيء !

ولم يعترض كامني ، فوقف ينظر اليها ، ثم قال وقد فارقت ثغره إبتسامته المعهودة :

– إني لن أكذبك القول يا رنزنب .

وسكت قليلا وقد قطب جبينه وكأنه يرتب أفكاره ثم قال :

– إنه يسرني انك عرفت الحقيقة ، وإن لم تكن كما تتصورينها تماماً !

– انك أعطيت نوفريت نصف التميمة المكسورة – كما أردت أن تعطيني شطر هذه التميمة .. لا شك في أنكما كنتما شطرين ، لجسم واحد !

– انك غاضبة يا رنزنب ،غير ان غضبك يسرني لأنه دليل على انك تحبينني لكن مع هذا يجب ان أشرح لك الأمر : إنني لم أعط نوفريت تلك التميمة ، بل هي التي أعطتني إياها !

وسكت لحظة ثم قال :

– ربما لا تصدقينني ، لكن هذه هي الحقيقة .

– لا أريد الا ان أصدقك ، وقد يكون ما قلته لي هو الحق .

وبدت لمخيلتها نوفريت بوجهها الجميل الحزين ، واستمر كامني يقول :

– حاولي ان تفهمي يا رنزنب ، فقد كانت نوفريت بارعة الجمال ، وقد سرني تعلقها بي وملأ نفسي غروراً .. غير انني لم أكن متيماً بحبها !

فشعرت رنزنب بغمرة من الشفقة ، فلا ، ان كامني لم يحب نوفريت ،

ولكن نوفريت كانت تحبه حباً يائساً مراً ، إنها في هذه البقعة بالذات على شاطىء النيل قد كلمت نوفريت صباح يوم وعرضت عليها المودة والمحبة ، وتذكرت موجة البغض والشقاء التي واجهتها نوفريت بها ، في تلك اللحظة .. إن السبب واضح الآن كل الوضوح . يا لنوفريت البائسة !. فقد كانت خدينة لشيخ كثير الجلبة ، وكان يأكل قلبها حب شاب وسيم لا يكاثرث لها !

فواصل كامني كلامه قائلا :

ــ ألا تعلمين يا رنزنب إني لم أكد أجيء الى هذا البيت وأراك حتى أحببتك ؟ وانني منذ تلك اللحظة لم يملأ قلبي سواك ؟ وقد أدركت ذلك نوفريت !

ففكرت رنزنب وقالت لنفسها :

ــ أجل قد أدركت نوفريت ذلك، ولا شك انها أبغضتني منذ تلك اللحظة وهي اذن ما كانت تستحق الملامة .

ثم قال كامني :

ــ انني لم أرد ان أكتب لها ذلك الخطاب الى والدك، ولم أحب ان تكون لي يد فيما تدبره ، ولكن كان من الصعب ان أمتنع !

فقالت رنزنب وقد نفد صبرها :

ــ أجل ، أجل . كل ذلك لا يهم الآن . ان نوفريت فقط هي التي أفكر فيها . فقد كانت تحبك كثيراً .

ــ لكنني لم أبادلها حباً بحب !

ــ لعل هذا لأنك قاسي القلب !

ــ كلا !. لكنني رجل وهذا كل ما في الأمر !. واذا كانت هناك امرأة قد أرادت لنفسها التعاسة بسببي فإن هذا يزعجني ! هذه هي الحقيقة .. انني لم أحب نوفريت بل أحببتك أنت .

وهنا لم يسع رنزنب إلا أن تبتسم .

بينما استطرد كامني فقال :

ــ لا تدعي نوفريت بعد أن ماتت تحدث شقاقاً بيننا نحن الأحياء ، إني أحبك يا رنزنب ، وأنت تحبينني ، وهذا كل ما يهمنا !

فقالت رنزنب لنفسها :

« أجل هذا كل ما يهمنا » .

ثم نظرت إلى كامني ، وكان قد مال برأسه جانباً ، وبدا على وجهه التوسل ورأته في عنفوان الشباب .. فقالت لنفسها :

« انه على حق . لقد ماتت نوفريت . أما نحن فعلى قيد الحياة ! اني افهم الآن سبب بغضها إياي ، وانه ليحزنني انها قاست كثيراً ، ولكن لم يكن ذلك ذنبي .. لم يكن ذنبي أن كامني أحبني دونها . فإن مثل ذلك يحدث كثيراً بين الناس ! »

وكانت تيتي تلعب على شاطىء النهر فجاءت إلى أمها تقول :

ــ ألا نعود إلى البيت الآن !

فقالت لها أمها بحسرة :

ــ أجل سنعود الآن إلى البيت

وساروا صوب البيت وكانت تيتي تجري أمامهما ..

وقال كامني بارتياح :

ــ إنك سمحة الخلق يا رنزنب فوق كونك جميلة . هل بقيت الصلة بيننا كما كانت ؟

ــ أجل يا كامني .

ــ إني هناك على النهر قد شعرت بالسعادة !

ــ وأنا أيضاً !

فنظر اليها ملياً وقال

- نعم ، إنك كنت بادية السعادة ، ولكنك كنت تفكرين في شيء بعيد، وأريد أن تفكري فيّ أنا !

- لقد كنت أفكر فيك

فأمسك يدها وأبقاها بين يديه ، فلم تحاول جذبها ، وشعر بها ترتجف في يده وأحس بأنفاسها وقد زادت سرعة ، فشعر بالطمأنينة .

* * *

دعت رنزنب حنث إلى غرفتها ، فأقبلت هذه مسرعة ووقفت بين يديها ممتثلة ، ثم فغرت فاها دهشة إذ رأت علبة الحلى والتميمة المكسورة في يد رنزنب ، فقالت لها هذه :

- إنك وضعت هذه العلبة في غرفتي ، أليس كذلك يا حنث ؟ لقد كنت تريدين أن أجد هذه الحلية وأن ..

فسارعت حنث إلى إتمام عبارة رنزنب قائلة :

- وأن تجدي نصفها الآخر ! حسناً .. ها أنت قد وجدتها .

وضحكت ضحكة خبيثة ، فقالت لها رنزنب :

- إنك ترتاحين إلى إيلام الناس يا حنث ، وأنت لا تصرحين بما في فكرك ولكنك تصبرين وتصبرين حتى تأتي اللحظة التي ترضينها ، إنك تكرهيننا جميعاً ، ولقد كنت دائماً تكرهيننا !

- إني واثقة بأنك لا تعنين ما تقولين ..

ولكن صوت حنث كان يدل على الشماتة ، فقالت لها رنزنب :

- لقد أردت إحداث شقاق بيني وبين كامني ، حسناً إذن فاعلمي انه لم يحدث بيننا شيء من ذلك !

- جميل منك ان تصفحي ، إنك تختلفين كثيراً عن نوفريت !

فأسكتتها قائلة :

- لا أريد أن أتحدث عن نوفريت .

- هذا خير لك .. إن كامني حسن الحظ كما انه وسيم الطلعة ، وقد كان من حسن حظه ان نوفريت ماتت في الوقت المناسب ، وإلا لأحدثت له متاعب شديدة عند أبيك ، وما كانت لتسكت على زواجه بك ، لأنها ما كانت لتطيق ذلك ، بل أعتقد انها كانت تجد وسيلة لمنعه .

فنظرت اليها ببغض وقالت :

- إن لسانك ينفث السم دائماً ، ان له مثل لدغة العقرب ، ولكن لا يمكنك ان تجعليني شقية .

فقالت حنث :

- هذا بديع ! أليس كذلك ؟ إنك متيمة حباً .. والحق ان كامني شاب جميل ، كما انه يعرف كيف يغني أغاني الحب ، ولقد فاز دائماً بما أراد لأنه جسور . حقاً اني لمعجبة به !

فسألتها في حدة :

- ماذا تريدين أن تقولي يا حنث ؟

- أقول لك اني معجبة بكامني واثقة من انه بسيط مستقيم حقاً ولا يتظاهر بذلك ! ان المسألة كلها كاحدى القصص التي يروجها القصاص في الأسواق : الكاتب الشاب الفقير يتزوج ابنة سيده ويقاسمها الميراث ثم يعيشان في هناءة ! ما أحسن حظ بعض الشبان ذوي الوسامة !

فنظرت اليها بازدراء وقالت :

- حقاً .. ان ظني لم يخب فيك يا حنث ، انك تكرهيننا من كل قلبك !

- كيف تقولين ذلك يا سيدتي ؟ لقد خدمتك كالأمة المستعبدة منذ

ماتت أمك !

وكان في صوتها رنين الظفر ، بدلاً من عويلهـا المعهود ، فنظرت رنزنب ثانية الى علبة الحلى ، وخطر لها بغتة خاطر آخر فقالت لها :

ـ انك أنت أيضاً التي وضعت قلادة الأسد الذهبي في هـذه العلبة ، لا تنكري ذلك يا حنث فإني أعلم !

فزال مظهر الظفر فجأة من محياها وحل محله الرعب وقالت :

ـ لم يسعني سوى ذلك يا سيدتي ، لقد كنت خائفة ..

ـ ما الذي أخافك ؟

فاقتربت منها حنث وقالت بصوت خافت :

ـ ان نوفريت كانت قد أعطتني هذه القلادة ، ولقد أعطتني هدايا غيرها فقد كانت نوفريت سخية كما تعرفين ، أجل لقد كانت كريمة !

فهزت رنزنب رأسها وقالت :

ـ لقد كانت تدفع لك أجراً عالياً !

ـ ليس جميلا منك أن تنظري الى الأمر هذه النظرة ، ولكنني أقول لك كل شيء عنه . لقد أهدت الي قلادة الأسد الذهبي ومشبكاً من حجر الجمشت وشيئاً آخر أو شيئين ، ولما جاء ذلك الغلام بقصته التي زعم فيهـا انه رأى إمرأة لابسة تلك القلادة ، خفت أن يظن اني أنا التي وضعت السم في النبيذ ليحموز وسوبك ، ولذا وضعت القلادة في هذه العلبة !

فتأملتها ملياً ثم سألتها :

ـ أهذه هي الحقيقة ياحنث

ـ أقسم انها الحقيقة ، لقد كنت خائفة !

فنظرت اليها متعجبة وقالت :

ـ إنك ترتعشين يا حنث ، وانك خائفة الآن ولا شك !

ـ أجل اني خائفة ، وهناك أسباب تبرر خوفي !

ـ ما هذه الأسباب يا حنث ؟ أريد أن أعرفها

فنظرت حنث حولها مرتاعة ولم تجب ، وعادت رنزنب تقول لها :

ـ تكلمي يا حنث ، خبريني ما هذه الأسباب ؟

وبقيت حنث مترددة بعض الوقت ثم قالت لها :

ـ ليس عندي ما أخبرك به !

ـ انك تعرفين اكثر مما ينبغي يا حنث ، ولقد كنت دائماً تعرفين اكثر مما ينبغي ، وكنت تستمتعين بذلك ، ولكن الآن أصبح هذا خطراً عليك ، أليس كذلك ؟

فهزت حنث رأسها ثم ضحكت بخبث وقالت :

ـ صبراً يا سيدتي ، اني سوف أمسك السوط يومـاً ما في هذا البيت وأفرقعه صبراً !

ـ انك لن تقدري على ايذائي يا حنث ، فإن روح أمي لا ترضى ذلك !

فتغيرت سحنة حنث وبدا الشر في عينيها وقالت :

ـ لقد كنت أبغض أمك ، كنت دائماً أبغضها . وأنت لك مثل عينيها ومثل صوتها ومثل جمالها وتبجحها ، اني ابغضك !

فضحكت قائلة :

ـ أخيراً أرغمتك على أن تقولي الحق !

* * *

أما امحوتب فقد صار خيالاً لشخصه السابق اذ نحل جسمه وصار ضجراً متبرماً ، وترك تفاخره واعتداده بنفسه ، والقى جل اعتماده على رأي امـه وتدبيرها ، وقد اجتمع بها قبل أن يفاتح رنزنب في أمر زواجها ، ليستشيرها

في الأمر ، فأمضت معه ساعة أو أكثر وهي تكد ذهنهـا وتقلب الأمر على مختلف وجوهه .

ثم وافقت أخيراً على ان زواج رنزنب مما تقتضيه الحكمة ، ورأت ان الوقت لا يتسع للبحث عن اليق زوج لها بين شباب الأسرة ، ولاسيما ان مهمة الزوج المطلوب لن تتعدى ادارة الميراث الذي ينحدر اليها والى اطفالها ، وعلى هذا انحصر البحث في اثنين من المرشحين لهذا الزواج هما: حوري بحسبانه رجلاً مستقيماً صادق الود للأسرة وابن زارع صغير من جيرانها في الأرض ، وكامني الشاب الوسيم الذي يمت للأسرة بصلة القرابة .

وقد وازنت بين هذا وذاك بعناية ودقة قبل أن تدلي برأيها ، لان كلمة واحدة في غير محلها كانت جديرة بأن تحدث مأساة ، ثم أفصحت عن رأيها بقوة فقالت :

ـ ان كامني ولا ريب هو الزوج اللائق لحفيدتي ، واذا شاءت رنزنب فإن معدات الزواج يمكن أن تتم خلال أسبوع مراعاة للحداد ، هذا الى ان كامني شاب لطيف ، فإذا تزوجها فإنهما ينجبان أطفالاً اصحاء .

وعادت العجوز الى غرفتها من عند احوتب ، وهي تحدث نفسها بأنها تصرفت في ذلك الامر على مقتضى الحكمة وبماهو خليق بأن يؤدي الى الطمأنينة والآمان .

ولما دخلت غرفتها ، نظرت حولها مرتابة ، واهتمت بدن النبيذ خاصة ففحصته ، والفته مغطى مختوماً كما تركته ، وكانت دائماً تختمه كلما غادرت الغرفة ، وتأخذ الختم معها معلقاً في رقبتها !

انها لا تجازف بحياتها ! وليس من السهل أن تقتل امرأة عجوز ، فإن العجائز يعرفن قيمة الحياة ، ويعرفن معظم الحيل كذلك !

وفي الغد سألت خادمتها الصغيرة :

ـ أين حوري ..

ـ أحسبه في المقبرة بالغرفة الصخرية .

فبدت في وجه إيزا دلائل الارتياح ، وقالت للخادمة :

ـ اصعدى اليه واخبريه اني أريد أن يقابلني هنا صباح غد ، بعد أن يذهب أحوتب ويحموز وكامني إلى الحقل وبعد أن تذهب كيت إلى البحيرة مع أطفالها .

ثم قالت تحدث نفسها بعد انصراف الخادمة :

« أجل ، يجب أن أبحث الأمر مع حوري على انفراد ، بعد أن أبعث بحنت أيضاً إلى محل النسيج ، وسأخاطبه في كل ما يخالج ذهني » .

ولما عادت الفتاة الزنجية تنبئها بأن حورى سينفذ أمرهـا ، تنهدت بارتياح ، لكنها ما لبثت أن شعرت بانتشار التعب في جسمها كله ، فأمرت الفتاة بأن تحضر لها الدهان المعطر ، وأن تدلك لها جسمها به ، وسرعان ما خف ألم الروماتيزم الذي في عظامها . وأخيراً وافاها النوم فاستراحت من مخاوفها إلى حين !

ولما استيقظت ايزا في صباح اليوم التالي ، عجبت من اشتداد البرد إلى حد أفقد يديها وقدميها الاحساس ، ثم خيل اليها أن الخمول ينتشر في جسمها كله وان ذهنها يشل عن التفكير ، وقلبها ونبضها يخفقان فقالت تحدث نفسها :

« أهذا هو الموت ؟ انه إذن لموت عجيب ليست له مقدمات ، ولم يأت به نذير ! أهكذا يموت العجائز ؟ حسناً .. انه ليس شيئاً مؤلمـاً على كل حال !

ثم خطر لها خاطر روعها . ان هذا ليس هو الموت الطبيعي ، ولا ريب ان العدو قد دهمها في الظلام ، إنه السم ! ولكن كيف كان ذلك ؟ ومتى ؟ ان كل ما أكلته أو شربته قد فحص أولاً وذاقه عبد حتى استوثقت من خلوه من السم ، ولم يكن هنالك منفذ لأي خطأ او غفلة !

وحاولت أن تكتشف خفية الأمر بالبقية الباقية من وعيها وذكائها .. أجل

يجب ان تعرف قبل ان تموت !

وشعرت بزيادة الضغط في قلبها ، ثم بالبرد القاتل ، ثم بصعوبة التنفس .

كيف استطاع العدو أن يفعل بها ذلك ؟

وبغتة لاحت لها الحقيقة الرهيبة من ذكرى قديمة .. أجل فروة خروف أزيل منها الصوف . وكذلك من الدهن المعطر .. لقد كان أبوها يجري تجاربه عليها ليثبت ان بعض السموم يمكن أن يتشربها الجلد ، إذن فهو دهن الصوف الدهان المصنوع منه !

وهذا هو سبيل العدو اليها ، لقد وضع السم في وعاء الدهن المعطر ،الذي لا غنى للمرأة المصرية عنه !

وغداً يأتي حوري فلا يعلم ، ولا تستطيع اخباره بما حدث !

وفي الصباح جرت الأمة الزنجية الصغيرة حول البيت تصيح :

— سيدتي ايزا ، سيدتي ماتت وهي نائمة .



وقف امحوتب ينظر الى جثمان امه ، وكان يبدو عليه الحزن ، ثم أعلن لمن حوله انه لا يشك في انها ماتت ميتة طبيعية ، متأثرة بالشيخوخة ، ومضى فقال :

— نعم ، كانت كبيرة السن ، وقد حان الوقت لأن تذهب الى اوزيريس ولا شك ان احزاننا ومتاعبنا قد عجلت بنهايتها .. ويبدو ان الموت قد واتاها في هدوء . حمداً لرع على انها ماتت ميتة طبيعية ، دون تدخل انسان او روح شريرة ، ليس للعنف اثر ! انظروا ما أهدأها في رقدتها !

وأخذت رنزنب تبكي ..

واخذ حوري يواسيها ..

ومضت حنت تتأوه وتهز رأسها وتقول :

— ان موت ايزا خسارة ، لقد كنت احبها واخلص لها .

وكف كامني عن الغناء وابدى دلائل الألم ..

وكان حوري قد جاء الى ايزا في الساعة المحددة للقائها ، فوجدها جثة هامدة ، وساءل نفسه :

« ترى ماذا كانت تريد ان تقوله لي على انفراد ؟ لقد سكنت الى الأبد قبل ان تفضي الي به ، ولكن .. أليس من الممكن ان أستنتج ؟

- ١٤ -

– أتظن يا حوري ان ايزا ماتت مقتولة ؟

– هذا ما أعتقده يا رنزنب !

– لكنها كانت حذرة . وقد اتخذت كل حيطة ممكنة ، وكان كل ما تأكله وما تشربه يفحص ويجرب أولاً !

– أعرف ذلك يا رنزنب ومع هذا فقد قتلت ايزا ما في ذلك شك !

– إنها كانت أكثرنا جميعاً فطنة ودهاء، وكانت أكيدة أن اي أذى لا يصل اليها . لا شك انه السحر يا حوري ! السحر السيء من روح شريرة !

– انك تعتقدين ذلك لأنه أيسر ما يعتقده الانسان . والناس دأبهم ذلك. لكن ايزا نفسها ما كانت لتؤمن به !

– وهل كانت ترتاب في أحد ؟

– أجل لقد أبدت ارتيابها من قبل، ومنذ ذلك أصبحت خطراً على العدو. وكونها قد ماتت يدل على ان ارتيابها كان في محله !

– وهل أخبرتك من هو ؟

– كلا ! إنها لم تخبرني ، ولم تذكر اسم أحد مطلقاً . ومع ذلك أعتقد اننا اتفقنا في التفكير ، أنا وهي !

– إذن يجب عليك ان تخبرني يا حوري حتى أكون على حذر .

– كلا . إن شدة اهتمامي بسلامتك تمنعني من ان أخبرك .

فتطلعت اليه واجمة ثم قالت له :

– أليست حياتي في أمان ؟

فبان الكدر على وجهه وقال :

– كلا ، ليست في أمان . لا أحد هنا في أمان . ولكنك آمن على نفسك الآن منك إذا عرفت الحقيقة ، لأنك في هذه الحالة تكونين خطراً على العدو يبادر إلى إزالته !

– وأنت يا حوري ؟ ألا تعرف من ذلك العدو ؟

– أظن إني أعرفه ، لكني لم أقل شيئاً ولم يصدر عني أي شيء يدل على ذلك . قد تخلت ايزا عن فطنتها إذ نم كلامها عما تعرفه ، ودلت على اتجاه فكرها ، وقد قلت لها هذا صراحة !

ثم تركها ومضى ، فهتفت به قائلة :

– حوري . حوري .. إلى أين أنت ذاهب ؟

فالتفت اليها وقال في هدوء :

– إلى الحقول مع يحموز . إن أمامنا عملاً كثيراً يؤدى ويدون، فقد أوشك الحصاد على التمام .

– وكامني ؟ . أذاهب هو معكم أيضاً ؟

– نعم ، سيذهب كامني معنا .

فصاحت رنزنب تقول :

– إني أخشى ان أبقى هنا . أجل اني خائفة حتى في رابعة النهار ، وبرغم وجود الخدم حولي !

فعاد اليها حوري في خطى وئيدة متزنة ، ثم همس اليها قائلاً :

– لا تجزعي ! . ليس هناك أي سبب للجزع !

فنظرت اليه عابسة وقالت :

– ولكننا في خطر ولست أنا المهددة أولاً .. أهذا ما تعنيه ؟

– إجتهدي ألا تفكري في الأمر يا رنزنب . إني أفعـــل الآن كل ما في استطاعتي وإن كان يبدو لك إني لا أفعل شيئاً !

– فهمت ! إن الدور على بحموز أولاً . لقد حاول العدو ان يقتله بالسم ففشل .. والآن سيحاول مرة ثالثة . ولهذا تصحبه أنت ولا تفارقه .. لكي تحميه . وبعد ذلك يجيء دور أبي ثم دوري . من ذا الذي يبغض أسرتنا إلى حد أن ..

فقطع حوري كلامها وقال في حزم :

– اسكتي ولا تتكلمي عن ذلك ! ثقي بي يا رنزنب .

– إني أثق بك يا حوري .. انك لن تدعني أقتل .. اني أحب الحياة ولا اريد ان أتركها قبل الأوان .

– إطمئني . ان تتركي الحياة على تلك الصورة التي تخشينها ؟

* * *

جلست رنزنب ترقب كيت ، وهي تعاون أطفالها على صنع نماذج من الطين .

وكانت أصابعها مشغولة بالعجن والتشكيل ، ووجهها ، كالعادة ، عاطلاً من كل تعبير . ولم يبد عليها أي تأثر ، من الجو المملوء حولها بالموت والخوف ..

فقد نصح حوري لرنزنب بعدم التفكير ، لكنها لم تستطع اتباع هذه النصيحة .

وإذا كان حوري يعرف من هو العدو ، واذا كانت ايزا قد عرفته ،

فلماذا لا تعرفه هي كذلك ؟. ربما كان الأفضل لها حقـــاً ألا تعرفه ، ولكن أي انسان في مثل موقفها يمكن ان يقتنع بذلك ؟. انها تريد أن تعرف .

ولا شك ان الأمر سهل واضح ، فإن أباها بالبداهة لا يمكن أن يرغب في قتل أبنائه ، فإذا تركت أباها جانباً فمن يبقى اذن ؟ لا يبقى محلا للشبهة سوى كيت وحنت .

لكن كيت وحنت امرأتان ضعيفتان .. وهما ولا شك أعجز من ارتكاب تلك الجرائم الفظيعة .. هذا الى انه ليس لإحداهما اي باعث معقول يدفعها الى اقتراف الجرائم المذكورة .

ثم قالت رنزنب لنفسها :

– ان حنت تبغض الجميع .. اجل لا ريب انها تبغضهم .. فقد صرحت لي بأنها تمقتني . فلمـــاذا لا تمقت الاخرين كذلك ؟. ولكن .. أتكره حنت امحوتب ايضاً ؟ كلا . فقد ظلت سنوات وهي تتملقه وتبدي له جانب الذل والمسكنة ، وهو يعتقد سذاجتها واخلاصها . ولا ريب ان هذا الاخلاص لا يمكن ان يكون كله رياء ومينا . ولكن .. اذا كانت حنت مخلصة لأمحوتب ، فكيف يمكن ان تقتل أولاده وتسبب له كل ذلك الحزن والألم ؟ لعلها أبغضته هو ايضاً ، او لعلها كانت تبغضه منذ البداية وانما تتملقه لتتبين ضعفه

كانت رنزنب جالســة ، مشغولة الذهن بهذه الأفكار ، بينما كيت منصرفة عنها الى ملاعبة الأطفال ، ثم لحظت طول اطراقها وسكوتها أخيراً فسألتها :

– ماذا بك يا رنزنب ؟ انك حقاً لغريبة الأطوار .

فوقفت وقالت :

– انه الجو المخيف الذي نعيش فيه .

فردت كيت دون اهتمام :

– آه ، هذا فقط ؟

فدهشت رنزنب لعدم الاكتراث البادي عليها وسألت :

– الست خائفة يا كيت ؟

– خائفة ؟. كلا . لست أشعر بخوف ، واذا حدث شيء لأحوتب فإن الأطفال يحميهم حوري . ان حوري رجل شريف . وسيحرس ميراثهم لهم .

– لكن يحموز هو الذي سيتولى امرهم .

– ان يحموز سيموت ايضاً .

– عجباً .. كيف تقولين ذلك بهدوء ؟

ففكرت كيت لحظة ثم هزت كتفها وقالت :

– اننا امرأتان معاً . فلأصدقك القول . ان احوتب كان دائماً مستبداً ظالماً . فقد اساء التصرف اذ اتخذ لنفسه خليلة وخضع لإغرائها اياه بأن يحرم أبناءه من الميراث . اني لم احب احوتب قط . اما يحموز فهو لا شيء . فقد كانت ساتيبي تسيطر عليه من كل الوجوه . وبعد وفاة ساتيبي صار يستخدم سلطته ويصدر الأوامر . غير انه بالطبع يؤثر اولاده على أولادي ، وعلى هذا ففي موته خير لأولادي .. هذا ما اراه انا . ان حوري لا اولاد له ، وهو عادل .. ان كل هذه الحوادث مروعة ، ولكني فكرت فرأيت انها للخير .

وازدادت دهشة رنزنب وعادت تسأل :

– انك عجيبة يا كيت .. انسيت ان زوجك الذي كنت تحبينه كان اول القتلى في البيت ؟

فنظرت اليها كيت نظرة لم تخل من سخرية وقالت :

– انك احياناً ، مثل تيق ، يا رنزنب .. حقاً ، اكاد اقسم انك

طفلة مثلها .

– انك غير حزينة على سوبك .

– اني قد اتبعت التقاليد بحذافيرها ، وانا اعرف كيف يكون مسلك الأرملة التي مات زوجها حديثاً .

– اجل ، وقد وقف الأمر عند هذا الحد .

فهزت كيت كتفيها وقالت :

– لماذا كان ينبغي لي ان احبه ؟

– الم يكن زوجك وابا لأطفالك ؟

فرقت ملامح وجه كيت ونظرت بعطف وحنان الى ولديها الصغيرين وهما يلعبان بدمى من الطين ، ثم انتقلت بنظرتها الى عنخ وهي تمشي بصعوبة وتغني وترفع ساقيها الصغيرتين .. والتفتت بعد ذلك الى رنزنب وقالت لها :

– نعم انه ابو اطفالي ، وانا احمد له ذلك . ولكن ماذا كان غير ذلك ؟ لقد كان شاباً طائشاً وسيماً ، وكان يذهب دائماً الى النساء الأخريات . ولم يتخذ لنفسه اختاً تعيش معنا في البيت وتكون نافعة لنا جميعاً .

كلا ، بل كان يذهب الى بيوت سيئة السمعة ، وينفق فيها كثيراً من الذهب والنحاس ، وكان يشرب الخمر ايضا ، ويطلب اغلى الراقصات اجراً ..

وقد كان من حسن الحظ ان احوتب كان لا يترك له العنان ، ويحاسبه حسابا عسيراً على ما يبيعه من منتجات المزرعة . فأي حب واي احترام كان يمكنني ان اكنهما لرجل من هذا الطراز ؟

ومن هم الرجال على اي حال ؟

ان مهمتهم ان ينسلوا اطفالاً وهذا كل ما في الامر . ولكن نحن النساء

تخلف لاولادها كل ما تملك .

كان صوت كيت وهي تقول ذلك مليئا بالاحتقار ، وقد تغيرت سحنة وجهها القوي القبيح .

فتفكرت رنزنب وقالت لنفسها :

ـ ان كيت قوية .. واذا كانت غبية ، فإنها غباوة الرضى عن النفس .. انها تكره الرجال ، وتحتقرهم .. كان ينبغي لي ، ان اعرف ذلك .

لقد لمحت مرة من قبل ، بارقة من حنقها ووعيدها .. اجل ، ان كيت قوية !

ثم وقع نظرها دون قصد على يدي كيت ، اذ كانتا تعصران الطين وتعجنانه ، وكانتا يدين قويتين ، ذات عضلات متينة . فرقبتها رنزنب وهما تدفعان الطين .

وتذكرت ابي ، ويدين قويتين تدفعان رأسه الى الماء ، وتمسكان به فيه حتى اختنق ومات .

ثم قالت لنفسها :

ـ ان يدي كيت لا تعجزان عن ذلك .

وحدث بعدئذ ان سقطت عنخ الصغيرة وتدحرجت ، واخذت تصرخ ، فأسرعت امها اليها تحملها وتحتضنها وتحنو عليها وقد تمثل الحنان في ملامحها .

ثم جاءت حنت من الشرفة وتقول :

ـ هل حدث شيء .. ان الطفلة تصرخ بشدة .. فقد حسبت انه ربما ..

وسكتت بغتة .. وكأنما ساءها ألا يتحقق ما توقعته من حدوث شر جديد ..

ورددت رنزنب بصرها بين المرأتين .. فرأت البغض في عيني احداهما والحب الاموي في عيني الاخرى .

* * *

وقفت رنزنب أمام أخيها يحموز وقالت له :

ـ يجب أن تحذر كيت يا يحموز !

فقال لها في دهشة :

ـ كيت ؟. كيف ؟. ماذا تقولين يا أختاه !

ـ أجل ، ينبغي ان تحذر كيت .. إنها خطرة أكثر مما نظن جميعا .

فسكت قليلا مفكراً ثم قال :

ـ إن كيت إمرأة وديعة خاضعة .. ليست على حظ من الذكاء وهي .

فقطعت كلامه قائلة .

ـ إنها ليست وديعة ولا خاضعة . إني خائفة منها . وأريد أن تأخذ حذرك .

فابتسم وقال :

ـ آخذ حذري ممن ؟ اني لا أقدر ان أتصور كيت تقتل وتنشر الرعب ! ليس لها الذكاء اللازم لذلك .

ـ إن الأمر ليس أمر ذكاء ، تكفي المعرفة بالسموم . وانت تعرف ان بعض الأمر لها معرفة بها ، تتوارثها البنت عن الأم ، وهن يستخرجنها من بعض الأعشاب ، وهو نوع من العلم يسهل على مثل كيت ان تتلقاه . أنسيت

انها تستخرج الأدوية من الأعشاب لأطفالها عندما يمرضون ؟

فقال يحموز بعد تفكير :

— هذا صحيح .

وعادت رنزنب تقول :

— وحنث أيضاً .. إنها إمرأة شريرة فاحذرها !

— أما هذه فإننا لم نحبها قط ، ولولا حماية أبي لها .

فنظرت اليه في دهشة ، إذ كانت هذه أول مرة تسمعه فيها ينتقد أباه ، بعد ان كان دائماً شديد الحرص على ألا يمسه بأي نقد .

ثم قالت لنفسها :

— إن يحموز الآن يستولي على السلطة تدريجياً ، وقد فقد احوتب نشاطه في الأسابيع الأخيرة ، وصار يصرف الساعات وهو يحملق أمامه شارد الذهن وأحياناً لا يفهم ما يقال له .

ثم قالت ليحموز وهي تنظر حواليها :

— أتظن انها هي .. هي التي ..

فأمسك يحموز بذراعها وقال :

— اسكتي يا رنزنب . ان هذه الأشياء لا يصح التحدث عنها ، حتى ولا همساً .

* * *

كان اليوم التالي ، يوم عيد « القمر الجديد » ، فصعد أحوتب الى المقبرة في ساعة مبكرة من الصباح ليقدم الهبات المعتادة .

وقد اقترح يحموز أن يتولى عنــه القيام بهذه المهمة ، لكنه أبى

وأصر على أن يؤدي تلك المراسم بنفسه .

وقال له بصوت واهن :

— يجب ان أؤدي هـــذه المهام بنفسي ، لأطمئن الى انها تؤدى كما يجب ، هل فررت قط من القيام بواجباتي ؟ ألم أعلكم جميعاً وأعن بكم جميعاً ؟

ثم توقف عن الكلام هنيهة وقال :

— جميعاً ؟!. قد نسيت ان ولدي الجريئين سوبك وايبي قد ذهبا وانتهيا ، ولم يبق لي الا أنت يا يحموز واختك رنزنب ! نعم قد بقيتما يا ولدي العزيزين، لكن الى متى ؟ هذا ما لا أدريه !

ثم تنهد وأطرق مفكراً ، فقال له يحموز بصوت مرتفع :

— ستبقى سنوات عديدة .

فغمغم احوتب بعبارة غير مفهومة ، ثم رفع صوته قليلاً وقال :

— ان حنث تفهمني فقــد كانت تفهمني دائماً .. انها تقدر عظم تبعاتي ! ولقــد كانت حنث دائماً متواضعة ذليلة مخلصة . وستكافـأ على ذلك .

ثم سكت مرة اخرى ، وما لبث ان قال فجأة :

— أفاهم أنت يا يحموز ؟ يجب ان يكون لحنث كل ما تريده يجب ان تكون أوامرها مطاعة !

فقال يحموز في دهشة :

— أوامر حنث يجب ان تطاع ؟!. حسناً .. ولكن لمَ هــذا يا أبي .

— هذا ما أريده .. ان ارادة حنث متى نفذت ، فلن تحدث وفيات جديدة .

ثم خرج ، تاركاً يحموز ورنزنب ينظر كل منهما الى الآخر في دهشة

وانزعاج ..

وقالت لاخيها اخيراً :

– ما معنى ذلك يا اخي .

– لا أدري .. اني احياناً اظن أبانا لا يفقه ما يقوله .

– ربما كان هو كذلك ، ولكن حنث تعرف تماماً ما تقوله ، وما تفعله . وقد ذكرت لي منذ وقت وجيز انها هي التي ستمسك بالسوط في هذا البيت .

ومضت فترة وهما ساكتان ، وكل منهما ينظر الى الآخر . ثم وضع يحموز يده على ذراع اخته وقال لها :

– لا تغضبيها . انك تظهرين عواطفك أوضح مما ينبغي يا أختاه . لكنك قد سمعت الآن ما قاله أبونا .. اذا نفذت ارادة حنث ، فلن تحدث وفيات .

* * *

كانت حنث جاثمة في احدى غرف المخزن تعد أكداساً من الملاءات القديمة ثم توقفت عن العد ، وأدنت احداها من عينيها متأملة العلامة الموضوعة عليها فقالت تحدث نفسها :

– انها ملاءات عشايت ، وهذه علامة السنة التي جاءت فيها وأنا معها الى هذا البيت .. كان ذلك من زمان بعيد .

وشعرت بوقع قدمين وراءها ، فارتاعت ونظرت خلفها فرأت يحموز ، وسمعته يسألها :

– ماذا تفعلين يا حنث .

– إن المحنطين يطلبون ملاءات أخرى ، ولقد استخدموا أكداساً من الملاءات استعملوا أمس أربعمائة ذراع منها ، إن هذه الجنازات تتطلب ملاءات لا عدد لها ! وعلينا الآن أن نستخدم هذه الملاءات القديمة ، إنها من صنف جيد ولم يصبها البلى ، إنها ملاءات أمك يا يحموز ؟

– من الذي سمح لك بأخذ هذه الملاءات ؟

فضحكت وقالت :

– إن أحوتب قد عهد الي في كل شيء ! فأنا لست في حاجة لأن استأذن أحداً ! إنه يثق بحنث العجوز المسكينة ، ويوقن بأنها حسنة التصرف ، لقد قمت بمعظم العمل في هذا البيت ، وأحسبني سألقى الآن جزائي على ذلك

فقال يحموز في صوت هادىء :

– هذا ما فهمته أخيراً ، وقد ذكر أبي أن كل شيء يتوقف عليك !

– هل أحوتب قال ذلك ؟ انه ليسرني أن أسمع هذا ! ولكن ربما لا يكون هذا متفقاً مع رأيك ؟

فقال يحموز بلهجة معتدلة وهو يرقبها عن كثب :

– الواقع اني لم اكوّن لي رأياً في هذا بعد !

– من الخير لك أن يتفق رأيك مع رأي أبيك يا يحموز .. إننا لا نريد متاعب جديدة ، أليس كذلك ؟

فسألها :

– لست أفهم ما تقصدين ، أتعنين أننا لا نريد وفيات جديدة ؟

– وفيات جديدة ؟ لا أعلم .. لكني أشعر بأن شيئاً منها سيحدث !

فسألها :

– إذن . من الذي عليه الدور الآن يا حنث ؟

فبقتت وقالت :

– أتظن أني أعرف ؟ ما الذي يحملك تظنّ هذا يا يحموز ؟

فقال لها :

– أنا أعتقد انك تعرفين أموراً كثيرة .. ألم تعرفي ان لبيبي سيموت ؟ إنك داهية يا حنث لا شك في ذلك !

فقالت في صراحة :

– حسناً يا يحموز ، يسرني انك بدأت تدرك ذلك الآن .. اني لم أعـد حنث الغبية المسكينة التي لا تعرف شيئاً ، بل أنا وحـدي التي اعرف كل شيء ؟

فسألها :

– ماذا تعرفين يا حنث ؟

فقالت بحدة :

– أعرف اني أستطيع أن أفعل ما أشاء في هذا البيت .. وأعرف ان أحداً لن يستطيع ان يقف في سبيلي . إن أحوتب لا يعتمد إلا عـلي . وأنت ستفعل مثله يا يحموز ، أليس كذلك ؟

– ورنزنب ؟

فضحكت بخبث وقالت :

– إن رنزنب ان تكون هنا !

– أتظنين أن رنزنب عليها الدور في الموت ؟

– ماذا تظن أنت يا يحموز ؟

– اني أنتظر ما تقولينه أنت .

– لعلي لم أقصد سوى ان رنزنب ستتزوج ، وستذهب بعيداً ؟

فسألها :

– وماذا تعرفين غير هذا ؟

فضحكت ضحكة مكتومة وقالت

– إن إيزا ذكرت لي يوماً ان لساني خطر ، ولعله كذلك .

وضحكت ضحكة عالية اهتز جسمها معها ثم قالت :

– حسناً يا يحموز ، وماذا تقول ؟ ألم يئن لي أن أفعل ما أشاء في هذا البيت ؟

فنظر اليها يحموز نظرة فاحصة ثم قال :

– أجل يا حنث ، انك داهية ، وستفعلين ما يحلو لك في هذا البيت !

ثم خرج ليقابل حوري ، وكان هذا قادماً من القاعة الكبرى ، فلما رأى يحموز قال له :

– هذا أنت يا يحموز ؟ إن أحوتب ينتظرك للصعود الى المقبرة .

فأومأ برأسه موافقاً وقال :

– إني ذاهب إلى هناك .

ثم خفض صوته وقال له :

– إسمع يا حوري ، يخيل الي أن حنث قد جنت ! لا شك في ان بها مس من الشياطين ، ولقد بدأت أظن انها المسؤولة عن كل ما حدث !

فسكت حوري لحظة ، ثم قال بهدوئه المعتاد :

– إنها إمرأة عجيبة وشريرة كذلك كما أعتقد !

فقال يحموز بصوت اكثر خفوتاً :

– أظن يا حوري ان رنزنب في خطر .

فتساءل حوري قائلاً :

– في خطر من أي شيء ؟ من حنث ؟

– أجل .. لقد فهمت من كلامها ان رنزنب قد يكون الدور عليها في الموت !

وهنا سمعا أحوتب يصيح قائلاً :

– أأنتظر طول اليوم ؟ أي سلوك هذا ؟ لم يعد أحد يهتم بي ولا يقدر ما

أقاسيه ، اين حنت ؟ انها هي التي تفهمني .

وارتفع صوتها من داخل غرفة المخزن وهي تقول :

ـ أسامع أنت يا يحموز ؟ ان حنت هي الوحيدة التي يعتمد عليها .

فذهب حوري ليلقى أحوتب .

وقال يحموز بضع كلمات لحنت فأومأت برأسها موافقة ، وبان في عينيها بريق الظفر والأذى ..

ثم لحق يحموز بأحوتب وحوري ، وذهب الرجال الثلاثة إلى المقبرة .

* * *

مضى اليوم بطيئاً ثقيلاً على رنزنب ، وكانت قلقة ، تنتقل بـــين البيت والشرفة ، ثم منها إلى البحيرة ..

ثم من البحيرة إلى المنزل ..

وعند الظهر رجع أحوتب ، فتناول غداءه ، ثم جلس في الشرفة ..

وجاءت رنزنب فجلست معه واضعة يديها على ركبتيها ، وكانت تنظر إلى وجه أبيها بين الفينة والفينة ، متفكرة فيما يرتسم على ملامحه من علائم الدهشة وشرود الذهن.

وكان قليل الكلام ولكنه نهض فجأة وسأل :

ـ أين حنت ؟

وكانت حنت قد ذهبت بالقماش إلى المحنطين ، فعاد أحوتب الى مجلسه واطراقه ..

إلى أن سألته رنزنب :

ـ أين حوري ويحموز ..

فأجاب قائلا :

ـ لقد ذهب حوري الى حقل الكتان البعيد ، فإن هناك حساباً يعمل. ويحموز في المزرعة ، ان العبء يقع الآن على كاهله وأسفاه على سوبك وايبي ولدي العزيزين ، ولدي الجميلين ..

فحاولت رنزنب أن تشغله عن فجيعته في أخويها ..

وقالت له :

ـ ألا يستطيع كامني أن يشرف على العمال ؟

فنظر اليها في دهشة وقال :

ـ كامني ؟ من يكون كامني هذا ؟ ليس لي ولد بهذا الاسم

ـ كامني الكاتب يا أبي . وأنت قد اخترته لي زوجاً .

فأخذ ينظر اليها متفرساً..

ثم ثم قال في دهشة وذهول:

ـ ماذا تقولين ؟ انك ستتزوجين خاي ؟

فتنهدت رنزنب أسفاً وحزناً ولم تقل شيئاً ، اذ وجدت من القسوة أن تذكر أباها بالحقيقة التي ذهل عنها .

وبعد برهة وقف أحوتب فجأة وقال :

ـ ان كامني ذهب ليصدر تعليمات الى المشرف على معمل الجعة ، يجب أن أذهب لألحق به .

ثم انطلق خارجاً في خطوات متزنة ، وقد عاوده عزمه القديم ، فتنفست رنزنب الصعداء وقالت تحدث نفسها :

« لعل ذلك الذهول الذي غشي ذهنه قد زايله » .

ثم نظرت حولها وقد بدا لها البيت موحشاً ، وكان الأطفال عند طرف البحيرة البعيد .

ولم تكن كيت معهم .

فتساءلت رنزنب :

– كيف تركتهم كيت يلعبون وحدهم ؟ وأين هي الآن ؟

ثم خرجت حنث من البيت الى الشرفة وهي تنظر حولها ، فلما رأت رنزنب ، استعادت لهجة الذل والمداهنة ، وقالت :

– لقد انتظرت حتى أستطيع أن اجدك وحدك يا رنزنب ؟

– لماذا يا حنث ؟

فخفضت صوتها وقالت :

– عندي رسالة لك . من حوري ؟

فقالت رنزنب بلهفة :

– ماذا يريد ؟

– انه يطلب اليك ان تصعدي اليه في المقبرة .

– أهو يريد أن أفعل ذلك الآن ؟

– كلا . ولكن قبل ساعة من الغروب ، هذه هي رسالته ، وقد ذكر انه لا يكون هناك وقتئذ ، وانه يرجو منك ان تنتظريه هناك حتى يأتي ، لاهمية الأمر الذي يريدك من أجله .

وسكتت لحظة ثم قالت .

– لقد انتظرت حتى اجدك وحدك لأبلغك هذه الرسالة ، لأنه ينبغي ألا يعلم بها أحد .

شعرت رنزنب بارتياح لفكرة ذهابها الى المقبرة حيث الهدوء والسكينة ، ولقاء حوري هناك والتحدث معه ..

ولكنها عجبت قليلا من انه أسر الى حنث بهذه الرسالة ، ثم قالت لنفسها :

« ما الذي أخشاه من حنث ؟ اني أقوى منها

ثم نصبت قامتها بكبرياء ، شاعرة بشبابها مطمئنة الى الحياة ..

وعادت حنث إلى مخزن القماش وهي تضحك مسرورة بعد ان أبلغت تلك الرسالة إلى رنزنب .

ثم انحنت على كومة من الملاءات وقالت :

– سنحتاج إلى مقدار آخر من هذه الملاءات ؟

ومضت تعدها ، ثم تتوقف عن العد بين الحين والحين لتدني إحداها من عينيها وتقول :

– اتسمعين يا عشايت ؟ اني سيدة البيت الآن ، واني أقول لك أن قماشك هذا سيلف جسماً آخر ، وأي جسم هو ؟ أتعرفين ؟ ها .. ها .. ها . انك لم تستطع عمل شيء لمنع هذه الوفيات ، أنت وخالك حاكم الاقليم ؟

وسمعت حركة وراء أكداس الكتان ، فأدارت رأسها لترى ..

ثم بسط قماش عريض من الكتان فجأة فوقها ، كاتما فمها وأنفها وأخذت يد صلبة تلف القماش حتى خمدت حركتها .

- ١٥ -

جلست رنزنب عند مدخل الغرفة الصخرية تنظر إلى النيل وقد استغرقت في تفكير عميق .

فقد بدا لها أنه انقضى زمن طويل منذ جلست هناك لأول مرة بعد عودتها إلى بيت أبيها .

وتذكرت قولها يومذاك :

– إن كل شيء باق كما تركته منذ ثمان سنوات .

كما تذكرت ان حوري عارضها وذكر لها انها ، هي نفسها ، لم تعد رنزنب التي ذهبت مع خاي . فردت عليه بأنها لم تتغير . لكنه أخذ يحدثها عن التغيير الذي يأتي من الداخل ، وعن الفساد الذي لا تنم عنه ظاهرة خارجية !

انها الآن تعرف بعض مسا دار بخلده ، بعد ان وقع ما وقع من الكوارث .

إنه بلا شك قد أراد أن يعد ذهنها لذلك ، فقد كانت ساذجة ، واثقة بالناس مطمئنة إلى الظواهر الخارجية التي لأسرتها ، ولم يفتح عينيها على ما وراء هذه الظواهر سوى مجيء نوفريت !

ومضت رنزنب تحدث نفسها قائلة :

– نعم ، ان مجيء نوفريت هو المحور الذي دار حوله كل ما حدث ، ومع نوفريت جاء الموت إلى هذه الدار !

وسواء كانت نوفريت شريرة أم لا ، فقد جلبت معها الشر ، هذا ما لا شك فيه . بل أن هذا الشر ما زال جاثما في البيت وسط أفراد الأسرة !

وخطر لرنزنب مرة أخرى ان كل ما حدث إنما كان بسبب روح نوفريت الحائرة المؤذية الراغبة في الانتقام ، لكن هذا الخاطر ما لبث ان حل محله خاطر آخر .. ان حنث الحقود المحبة للأذى ما زالت على قيد الحياة !

وشعرت برجفة تعتري جسمها ، فنهضت ووقفت تنظر حولها وتحدث نفسها بقولها :

– لا أستطيع ان أنتظر حوري أكثر مما انتظرت . لقد آذنت الشمس بالمغيب . فلماذا لم يجيء ؟

ثم شرعت تهبط الدرب المنحدر ، صوب الوادي السحيق .

وكان الهدوء يشمل المكان ، وسرها ما حولها من سكون وجمال ، ولكنها بقيت تسائل نفسها :

– لماذا تأخر حوري ؟ . لو انه جاء لقضت معه ساعة أسعد فيها بالاطمئنان إلى حديثه ، الذي لن يتاح لها ان تستمع له بعد أن تصبح زوجة لكامني !

ولكن .. أتتزوج كامني حقا ؟

لقد أفاقت بغتة من ذهول الاستسلام الذى غمرها طويلا ، وشعرت بما يشعر به النائم ، الذي استيقظ بغتة من سبات عميق وحلم مفزع . إنها وسط ما كانت فيه ، من خوف وشك ، قد رضيت بكل ما عرض عليها !

ولكنها الآن عادت الى نفسها .

فإذا كانت ستتزوج كامي فيجب ان يكون ذلك عن رغبة حرة لها ، لا لأن أسرتها قد أرادت لها هذا الزواج .

كامي الوسيم ذو الوجه الضاحك ! انها تحبه أليس كذلك ؟ ولهذا السبب ستتزوجه !

لقد شعرت رنزنب بأن شخصيتها الاولى عـادت اليها في هذه الساعة ، ساعة الغروب فوق ذلك المرتفع ، ولم تجـد هناك ما يدعو الى الحيرة أو الاضطراب والخوف .

ومم تخاف ؟!

ألم تذكر يوماً لحوري انها تود لو تسير وحدها في هذا الدرب ، وفي وقت الاصيل الذي ماتت فيه نوفريت ؟ وانه سواء أطرق قلبها الخوف أم لم يطرقه ، فإنه ينبغي أن تمشي هناك وحدها ؟

حسناً إنها تفعل ذلك الآن . في مثل هذه الساعة انحنت هي وساتيبي على جثمان نوفريت . .

وفي مثل هذه الساعة أيضاً كانت ساتيبي تهبط الدرب فنظرت خلفها بغتة فرأت القضاء المحتوم

وقد كان هذا وذاك في هذا الموضع نفسه من الدرب ، ترى ما الذي سمعته ساتيبي ، فجعلها تستدير لتنظر خلفها ؟. لعلها سمعت وقع أقدام ؟

وهنا شعرت رنزنب بأنها هي نفسها تسمع وقع أقدام تتبعها في الدرب ، وارتعد جسمها فجأة إذ تملكها الخوف ، وخطر ببالها ان نوفريت وراءها تتبعها .

على انها برغم الرعب الشديد الذي استولى عليها لم تبطىء من خطاها كما انها لم تسرع .

بل أخذت تستجمع قواها الخائرة ، معتزمة التغلب على الخوف والخطر أياً كان مصدره ، وحدثت نفسها قائلة :

— ما الذي أخشاه ؟ اني لم آت أمراً أحاسب عليه .

وهكذا واتتها شجاعتها فنظرت خلفها وهي لا تزال تسير ،وعندئذ شعرت بالطمأنينة تحل بغتة محل الخوف .

إنه يحموز يتبعها ، ليس روح نوفريت الميتة ، ولكنه أخوها الحبيب . لا بد انه كان مشغولاً في غرفة الصدقات بالمقبرة ، وانه خرج منها بعد مرورها .

وقفت تصيح صيحة فرح :

— يحموز . . يسرني انه أنت

وكان قادماً نحوها مسرعاً وبدأت تقول له جملة أخرى تشرح فيها ما كان قد ساورها من خوف لا أســاس له ، واذا بالكلمات تجمد على شفتيها .

ان القادم ليس يحموز الذي تعرفه ، ليس أخاها الشفيق الوديع .

كلا ، فهذا الذي تراه تلمع عيناه ، ولسانه يبلل شفتيـه ، ويداه ممدودتان قليلاً امام جسمه ، وقد انحنتا الى تحت واصبحت أصابعه مثل المخالب .

وكان ينظر اليها نظرة لم تخطىء فهمها . فقد كانت نظرة قاتل تعود القتل ، وكانت ملامحه تنطق بالقسوة والإثم والشر ، ووجهه ينم عن الرضا إذ ظفر بالفريسة .

وتجلت لها الحقيقة المرة فجأة .

ان العدو الخفي هو يحموز ،هذا الوحش المستتر وراء قناع الوداعة واللطف والشفقة .

فقد كانت تعتقد ان يحموز يحبها ، لكن الحب لا يمكن ان يكون خلف

مثل هذه السحنة المقلوبة ، التي تشبه سحنة الشيطان .

وأطلقت رنزنب صرخة ضعيفة يائسة ، وأدركت ان هذا هو الموت ، وان ليس لها قوة تغالب قوة بحموز ، فهي لا بد ساقطة بعد لحظة حيث سقطت نوفريت ، وصاتيبي من قبل في هذا الموضع نفسه من الدرب .

ومرة اخرى استطاعت ان تجد صوتها وان تصرخ هاتفة باسم بحموز . وكان صوتها ينم عن كل ما كانت تكنه من الحب لاخيها الاكبر . لكن . ماذا يفيد الحب والتوسل ؟

لقد ضحك بحموز ضحكة صغيرة ناعمة ، لا كضحكة البشر ..

ثم اندفع نحوها ، ويداه ممدودتان ، وأصابعه منحنية ، لتطبق على عنقها .

فوقفت مسندة ظهرها الى صخرة هناك ، ومدت يديها المرتعشتين محاولة ان تدفع عن نفسها ذلك الموت الداهم .

فجأة سمعت صوتاً ضعيفاً له رنين كرنين الموسيقى .

وطار في الهواء شيء لم تتبينه تماماً .. ثم وقف بحموز وترنح ، ثم صرخ صرخة عالية وخر ساقطاً عند قدميها .

ونظرت رنزنب اليه مذهولة ، فإذا بسهم يعلوه ريش قد استقر في ظهره .

* * *

– بحموز ؟ . بحموز ؟

أذهلت الصدمة رنزنب فجعلت تردد اسم اخيها مرة بعد أخرى ، وهي لا تصدق ما رأته بعينيها .

وكانت خارج الغرفة الصخرية ، وقد أحاطها حوري بذراعه ، ولا تكاد تذكر كيف قادها الى هناك ، وانما كانت تكرر اسم أخيها في دهشة وخوف .

وأخيراً قال لها حوري :

– أجل بحموز . انه بحموز طول الوقت .

– كيف ؟ ولماذا ؟ كيف يمكن ان يكون هو ؟ ألم يشرف على الموت مع سوبك تأثراً بالسم الذي كان في النبيذ .

فقال حوري :

– كلا . انه لم يكن في خطر الموت ، فقد تجرع من النبيذ المسموم ما يجعله مريضاً فقط ، لكنه غالى في اظهار أعراض المرض وآلامه . وكان يعرف ان هذ هي الطريقة الوحيدة لإبعاد الشبهة عن نفسه .

– ولكنه ما كان يستطيع قتل ابي ، فقد كان وقتئذ ضعيفاً خائر القوى .

– وهذا كان ادعاء منه . ألا تذكرين ان الطبيب ذكر انه متى زال أثر السم سيستعيد قوته سريعاً ؟. فقد حدث هذا ، لكن بحموز تظاهر بعكسه .

فعادت هي تسأل :

– لماذا يا حوري ؟ اني لا أستطيع فهم ما حدث .

فتنهد حوري قائلاً :

– أتذكرين ، يا رنزنب ، اني حدثتك عن الفساد الذي ينبعث من الداخل ؟

– أذكر ذلك ، وقد كنت في الواقع أفكر فيه هذا المساء .

– لقد قلت لي يوما ان قدوم نوفريت هو الذي أحدث الشر ، لكن هذا لم يكن صحيحا ، فقد كان الشر هنا من قبل ، لكنه كان محجوبا في

قلوب أفراد الاسرة .

وكل ما أحدثه مجيء نوفريت انه كشفه للضوء ، وعلى هذا استحالت رقة كيت ووداعتها الى طاغية لنفسها واطفالها، ولم يعد سوبك ذلك الشاب المرح اللطيف بل صار ضعيفا داعراً متباهيا .

وأما ابي فلم يعد الطفل الجذاب المدلل ، بـل صار أنانيا يدبر المكائد ، ثم انقلبت ساتيبي العاتية ذليلة ضعيفة ، وانحدر احوتب نفسه الى طاغيـة فخور .

– اني اعرف كل هذا ، كما اعرف بعد حنث من الاخلاص المزعوم ، فقد تكشفت لي الحقيقة تدريجيا . لكن لماذا تحدث مثل هذه الامور ؟ لماذا يصدر الفساد من داخل النفوس كما قلت يا حوري ؟

فهز حوري كتفيه وقال :

– من يدري ؟ ربما كان النمو ضروريا للخير وللشر في نفس الانسان ، ولعل الخير الداخلي إذا لم يستطع صاحبه تنميته ، انقلب الى شر . او ربما كانت الحياة التي يحيونها ضيقـــة الافق ، فلا يرون فيها الا مرمى أبصارهم .

ولعل هذا كان مرضا اصاب احدهم فقط ، لكنه كان مرضا معديا كالآفة التي تصيب النبات .

فسكتت قليلا مفكرة ثم عادت تقول :

– لكن يحموز ؟ فقد كان يبدو دائما كما هو لم يتغير .

فقال حوري :

– اجل يا رنزنب ، وقد كان هذا من دواعي ارتيابي فيه ، فإن الآخرين كانوا يجدون لهم منفذاً من حدة طباعهم . اما يحموز فكان هيابا ، يسهل التحكم فيـه ، وليست لديه الشجاعة الكافية لان يثور انه كان يحب اباه ويكد لكي يرضيه ، ولكن احوتب كان يحسبه غبيا

بطيئا ، ويحتقره لهذا .

وكانت ساتيبي ايضا تعامله بالازدراء الذي تغريها به طبيعتها المشاكسة .

وهكذا ثقل على نفسه تدريجيا عبء الغضب الذي يخفيه في قرارة نفسه ، وكلما زاد وداعة أمام الناس ، إشتد به الكدر الخفي . وأخيراً لما أوشك أن يجني ثمار جده واجتهاده ، وان يشركه أبوه معه في أملاكه ، جاءت نوفريت. وقد كان جمالها هو الذي أشعل الشرارة الأخـــيرة . فقد هاجمت رجولة الأخوة الثلاثة ، ولمست نقطة الضعف عند سوبك إذ صارت تزدريه وتعده أحمق وصغرت من شأن ابي إذ عاملته كطفل ، وأظهرت ليحموز انه في نظرهـا أقل من رجل .

ولم تنتقص ساتيبي زوجها بلسانها الحاد قدر ما فعلته بعد مجيء نوفريت . وقد كان تعييرها إياه بأنها أكثر منه رجولة ، هو الذي قضى على مـا بقي له من ضبط النفس ، فلما صادف نوفريت في ذلك الدرب قـذف بها من شاهق !

فقالت رنزنب :

– كلا يا حوري ! فقد كانت ساتيبي هي التي قذفت بها !

– كلا يا رنزنب . قد أخطأتم جميعاً في ذلك . إن ساتيبي قد رأت ما حدث من تحت . أتفهمين ؟

– ولكن يحموز كان معك في الزراعة وقتئذ !

– كان هذا في الساعة الأخيرة فقط ، ألا تذكرين يا رنزنب ان جثمان نوفريت كان بارداً حين وجد ؟

انك قد تحسست خدها بنفسك وحسبت انها سقطت قبل بضع لحظات ، لكن الواقع كانت قد ماتت منذ ساعتين ، ولولا ذلك لما وجدت خدها بارداً في ذلك الجو الحار

فقد رأت ساتيبي ما حدث ، ولذا وقفت خائفة حائرة لا تدري ما تفعل

حتى جئت انت فحاولت بكل جهدها إبعادك .

– لكن .. لكن كيف عرفت كل ذلك يا حوري ؟

– قد استنتجت استنتاجاً !. وكان مسلك ساتيبي هو الذي لفت نظري، فلا شك انها كانت في ذعر شديد من شخص أو شيء، وقد ادركت ان الشخص الذي ترهبه هو يحموز ، لأنها تركت لومه وتعنيفه ، وصارت تواقة لأن ترضيه وتطيعه .

ولا شك انها قد صدمت صدمة عنيفة إذ رأته يقتل نوفريت وهي التي كانت تحسبه أضعف رجال الأسرة وتحتقره من أجل ذلك . ثم انقلب تصرف ساتيبي لهذا رأساً على عقب .

إنها كانت كمعظم النساء المشاكسات جبانة إلى أقصى حدود الجبن . فلما تكشفت لها قسوة يحموز وشدته أخذها الفزع فراحت تتكلم وهي نائمة وسرعان ما أدرك يحموز إنها خطر عليه .

والآن يا رنزنب تدركين الحق فيما رأيته ذلك اليوم بعينيك ... فإن ساتيبي لم تر خلفها شبح نوفريت إذ سقطت سقطتها المميتة ، لكنها رأت ما رأيته أنت اليوم . فقد أبصرت في وجه زوجها وهو يتبعها عزمه على القذف بها من عل ، كما فعل بنوفريت ، ففرت منه خائفة وسقطت ولما لفظت وهي تجود بروحها اسم نوفريت كانت تحاول ان تخبرك ان نوفريت ماتت بيد يحموز !

وسكت حوري قليلاً ، ثم استطرد قائلاً .

– وقد أدركت ايزا الحقيقة من كلمة قالتها حنث عفواً ، فقد شكت من اني لم اكن انظر اليها ، بل كنت أنظر وراءهـا إلى شيء لا وجود له !. ثم تحدثت عن ساتيبي

وبغتة رأت ايزا ان الأمور أبسط كثيراً مما حسبت أولاً . فإن ساتيبي لم تنظر إلى شيء وراء يحموز بل كان يحموز نفسه هو الذي رأته . وارادت ان

تجرب مدى هذه الفكرة من الصدق فعرضت الموضوع بطريقة مشتتة لا تعني شيئاً إلا ليحموز نفسه إذا كان هو الفاعل .

وقد أدهشته كلماتها ، وظهر أثرها فيه لحظة واحدة لكنها كانت كافية لأن تدرك ايزا ان ما ظننته هو الحقيقة .

وهنا أيقن يحموز انها تشك فيه ، وان الحقيقة توشك أن تتضح تماماً ، برغم قصة ذلك الغلام الراعي الذي كان خاضعا له ان يفعل أي شيء يأمره به ، ولو كان دواء يجرعه إياه تلك الليلة كيلا يستيقظ من نومه أبداً !

وهنا قالت رنزنب :

– آه يا حوري من العسير ان أتصور ذلك !. إني افهم ان يحموز يقتل نوفريت . لكن الجرائم الأخرى ؟

– من العسير ان أشرح لك هذا . ولكن ما دام قلب الانسان قد تفتح للشر فانه يزدهر فيه مثل الخشخاش بين القمح !

فقالت رنزنب :

– آه يا حوري ! قد تولاني الذعر ، حين نظرت خلفي ، ورأيت سحنته .

– اعرف ذلك ، وقد أيقنت انه اذا لاحت له فرصة لان يقذف بك من الدرب فإنه لن يتردد في اقتناصها .

– إذن انت لم تبعث الي بالرسالة التي أبلغتنيها حنث ؟

– لم ارسل اليك بأية رسالة . واعتقد ان حنث تعرف الحقيقة ، وان يحموز استغلها لكي تستدرجك الى هنا ، ولعلها حسبت ان وقوفها على السر يمنحها قوة قبل يحموز ، ولكنني أعتقد انه ما كان ليدعها على قيد الحياة طويلا .. وربما كانت الآن ..

فسرت رعدة في جسم رنزنب وقالت :

– ألا يوجد أحد باطنه مثل ظاهره ؟

– أجل ، هناك بعض الناس .. انا وكامني مثلاً ، فإننا كلينا كا تعرفيننا ظاهراً وباطناً .

وقد قال الكلمات الأخيرة لغرض في نفسه .

فأدركت رنزنب فجأة انها في مفترق الطرق وان عليها أن تختار بين الاثنين .

ثم قال حوري :

– اننا كلينا نحبك يا رنزنب ويجب ان تعرفي ذلك .

فقالت ببطء :

– ومع ذلك تركت معدات زواجي تمد دون ان تقول اية كلمة ؟

– كان ذلك من أجل وقايتك . وكانت ايزا ترى هذا الرأي نفسه فكان علي ان ابقي بعيداً بلا غرض حتى يمكنني ان ارقب يحموز عن كثب ولا اثير عداه لي .

ثم خفض من صوته وقال في تأثر ملحوظ :

– يجب أن تعلمي يا رنزنب ان يحموز كان صديقي سنوات عديدة ، وقد كنت احبه ، وحاولت ان اقنع اباك ان يمنحه المركز والسلطة اللذين يصبو اليهما ، ولكنني فشلت ، وانما حدث ذلك كله في الوقت الأخير .

ومع اني كنت موقناً بأن يحموز هو الذي قتل نوفريت ، فقد حاولت ان التمس له الأعذار . ثم جاء مقتل ساتيبي وسوبك ، وبعدهما ابيي ، ثم ايزا اخيراً ..

وهنا ايقنت ان الشر الذي في نفس يحموز قد تغلب على الخير وازاحه ، وهكذا لقي يحموز حتفه على يدي ، وكان موته سريعاً بلا الم ؟

فهزت رأسها في اسف وحسرة وقالت :

– الموت ؟ دائماً الموت ؟

فقال لها حوري :

– كلا يا رنزنب ؟ ان الحياة لا الموت هي التي تواجهك الآن ، فمن الذي تريدين ان تشاركيه فيها ؟

فنظرت امامها الى الوادي السحيق والنيل الفضي يتخلله ، وتبدت لعينيها صورة كامني يبتسم وهو جالس امامها في الزورق ذلك اليوم وراحت تحدث نفسها قائلة :

« انه جميل ، قوي مرح ، واني لأشعر بخفقان قلبي لذكره ، اجل انه يمكن ان يحل محل خاي في حياتي ، وسنكون سعيدين معاً ، وسنعيش سوياً ويهنأ كل منا بصاحبه ، وسيكون لنا اطفال اقوياء وجوههم جميلة .. وستكون امامنا ايام مملوءة بالعمل ..

وايام اخرى نركب فيها الشراع فوق صفحة النيل ، وماذا اريده خيراً من ذلك ؟

ثم ادارت وجهها ببطء تجاه حوري ..

وكأنما فهم ما تريده فقال لها :

– لقد احببتك حين كنت طفلة ، واحببت فيك وجهك الرزين ، والثقة التي كانت تحدوك الي ، طالبة ان اصلح لك لعبك المحطمة ، ثم عدت الي بعد ثمان سنوات وصرت تجلسين معي هنا وتصارحينني بما يدور في خلدك . وان ذهنك يا رنزنب ليس مثل أذهان بقية افراد الأسرة ، فهو لا يدور حول نفسه ليتوه في سراديب ضيقة .

إن ذهنك مثل ذهني فهو ينظر إلى ما وراء النيل ليبصر عالماً من الآراء الحديثة والتغييرات الطارئة ، عالماً فيه كل شيء ممكن لمن اوتي الشجاعة وبعد النظر ..

فقالت له :

– نعم يا حوري . لقد شعرت بهذه الأشياء معك ، ولكن ليس كل الوقت

فثمة لحظات لا أستطيع ان أتابع مجرى أفكارك فأبقى وحدي ..

وتوقفت عن الكلام عاجزة عن ان تعبر عن أفكارها بالأسلوب الملائم ، إنها لا تدري كيف تكون الحياة مع حوري ، فهو برغم رقته ، وبرغم حبه لها ، ستبقى عاجزة عن فهمه من بعض الوجوه ؟

إنهما سيستمتعان معاً ساعات مملوءة بالفكر والجمال ، ولكن ماذا تكون حياتها اليومية العادية ؟

وأخيراً مدت اليه يديها بدافع غريزي وقالت له :

– اسمع يا حوري ، إني ارجو منك أن تختار أنت لي .. خبرني ماذا أفعل ؟

فابتسم لها ، للطفلة رنزنب تحدثه ، ربما كان ذلك للمرة الأخيرة .

ولم يتناول يديها وإنما قال بهدوء :

– لا أقدر أن أنصح لك بما تفعلينه بحياتك يا رنزنب ، لأنها حياتك انت ، وأنت وحدك التي تقدرين أن تقرري ما تريدينه بشأنها ..

فأدركت في تلك اللحظة انها لن تتلقى منه عوناً على الاختيار ، ولم تجد منه ما يثير حواسها بلمس يدها كما فعل كامني .

وفجأة تجلى امامها الاختيار في أبسط أشكاله ، لقد كان عليها ان تختار بين الحياة السهلة والحياة العسيرة ، وأحست رغبة شديدة في أن تهبط الدرب تواً إلى الحياة السعيدة المعتادة التي عرفتها مع خاي . فهناك الأمان ، وهناك المشاركة في المسرات والأحزان .. دون ان تخشى شيئاً سوى الكبر والموت نعم .. الموت . لقد دارت بها افكار الحياة دورة انتهت بها إلى الموت ؟ ان خاي قد مات ، وكامني ايضاً قد يموت ، وتختفي ملامحه من ذاكرتها كما اختفت ملامح خاي .

وعندئذ نظرت إلى حوري وهو واقف بهدوء إلى جانبها ، وعجبت كيف

انها لم تلتفت من قبل إلى منظره .. إنها لم تكن بحاجة لأن تنعم النظر في شكله من قبل ؟

وتكلمت وكان في صوتها رنين العزم الذي كان له حين ذكرت له يوماً ، انها ستسير في الدرب وحدها عند الأصيل ..

وقالت له :

– لقد اخترت يا حوري .. ان اشاركك الحياة ، على الخير والشر ، حتى الموت ؟

فأحاطها بذراعيه ، وشعرت بغتة بحلاوة وجهه فوق وجهها ، واحست موجة الحياة تغمرها .

وقالت لنفسها « لو قدر لحوري ان يموت فإني لا انساه .. ان حوري هو أغنية قلبي إلى الأبد .. ومعنى ذلك انه لا موت بعد اليوم .. »

– تمت –